الفصل الثالث

من قضايا الفكر الإسلامى

١ الإنسان فى الفكر الإسلامى .

٢ تجديد الفكر الدينى .

٣ التراجع الحضارى بين التفسير التآمرى وإرادة الأمة .

٤ الإسلام وهرم الأولويات المقلوب .

٥ الموروث والوافد فى الثقافة الإسلامية .

١ الإنسان فى الفكر الإسلامى(*)

تمهيد :

عندما نتحدث عن أى قضية من قضايا هذا الكون الذى نعيش فيه ننسى أحياناً أهم قضية فى هذا الوجود . وأعنى بذلك قضية الإنسان ذاته ، على الرغم من أن هذه القضية ألصق القضايا بذات الإنسان ، ولا تعد من القضايا الكبرى فى هذا الوجود فحسب وإنما هى قضية القضايا فى هذا الكون الكبير .

فالإنسان هو محور الوجود كله ، وهو سيد فى هذا الكون : فكل شيء فى هذا الوجود مسخَّر له ، والديانات كلها جاءت من أجله ، والوحى السماوى كله قد اتجه بالخطاب إليه . والقرآن الكريم كله يدور حوله ، فكل ما فى القرآن الكريم إما حديث عن الإنسان أو حديث إلى الإنسان ، أو عن شيء يتعلق به بأى شكل من الأشكال .

وهذا يعنى أن موضوع الإنسان يُعد ـ دون مبالغة ـ قضية القضايا فى هذا الوجود . ويبدو الأمر كما لو أن العالم بدون الإنسان لا توجد فيه قضية ، ولا تعكر صفوه مشكلة من المشكلات . وقد كان هذا هو تصور الملائكة عندما أخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه يريد أن يخلق الإنسان ، ويحكى القرآن الكريم

---

* محاضرة ألقيت فى افتتاح المؤتمر الدولى الرابع عشر للفلسفة الإسلامية تحت عنوان (الإنسان فى الفكر الإسلامى) بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة (١٤ـ١٥ إبريل٢٠٠٩م).

عنهم قولهم فى هذا الشأن : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] . فالعالم بدون الإنسان يُعَد ـ فى منطق الملائكة ـ واحة سلام ، بعيدة كل البعد عن المشكلات والمنغصات ، وظهور الإنسان فى هذا العالم سيكون سبباً فى تعكير صفوه ، وفى إدخاله فى دوامة صراعات لا تنتهى ، تسيل فيها الدماء ، ويظهر فيها الفساد فى البر والبحر .

ولعل الملائكة قد قالوا ذلك على أساس ما أتيح لهم من علم بطبيعة الإنسان ، كما أنهم من ناحية أخرى قد تصوروا أن ما يقومون به من تسبيح وتمجيد لله سبحانه وتعالى هو غاية الوجود التى ليس بعدها غاية أخرى . ولكن أى عالم هذا الذى لا يستطيع أن يعى نفسه ، ولا حيلة له من أمر نفسه ، ولا إرادة له فى تسيير أموره ؟ إنه يكون عالماً لا طعم له ولا لون.

ومن هنا كانت إرادة الله سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم ما لا تعلمه الملائكة ـ أن يخلق كائناً يدرك نفسه ويدرك ما حوله ويدرك خالقه ، ويتولى مسئولية هذا الكوكب الأرضى بأمر الله وإرادته . وبذلك يكون للوجود معنى ، ويكون وجود الإنسان من أجل هدف حددته الإرادة الإلهية ، وهو العبادة لله وحده ـ كما يقول القرآن الكريم : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . ولكن هذه العبادة ليست قاصرة على التسبيح والتقديس الذى لا تعرف الملائكة شيئاً آخر سواه .

فالعبادة المقصودة هنا لها معنى أعم وأشمل من المعنى الضيق المألوف ، إنها تعنى كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة ، سواء كان هذا العمل

دينياً أو دنيوياً ، طالما قصد به المرء وجه الله وعمارة الأرض وتحقيق الخير للناس . وفضلاً عن ذلك فإنها عبادة تقوم على معرفة العابد لمعبوده . فهى قائمة على الوعى والإدراك ، والأهم من ذلك أنها قائمة على الاختيار من جانب العابد لمعبوده . وهذا أمر غير قائم بالنسبة للملائكة الذين ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

أما الإنسان فهو الكائن الوحيد فى هذا الكون الذى يستطيع أن يقول: لا ، حتى فى مواجهة الأمر الإلهى . ويخبرنا القرآن الكريم بذلك فى قوله : ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة : ٩٣] ، وفى قوله : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] . وهنا نلحظ أن الله قد أسند المشيئة للإنسان نفسه الذى يستطيع أن يقرر مصيره بنفسه . وهذا أمر ينسجم تماماً مع القانون القرآنى فى التغيير والذى يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

خصائص الإنسان :

ومن هنا فإن أول القضايا التى يجب أن تُبحث ، والتى ينبغى أن تكون دائماً محور البحث والدراسة والتأمل هى قضية الإنسان ، فهى القضية الكبرى فى هذا الوجود ، وما عداها من قضايا أخرى لا تعدو أن تكون تفريعات عن هذه القضية الكبرى . ومن أجل ذلك اهتم المفكرون والفلاسفة على مر العصور بهذا الموضوع الكبير . وكلٌ أدلى بدلوه فى هذه القضية الأساسية ، وكلٌ حاول أن يحدد الخصائص الجوهرية التى يختص بها الإنسان وينفرد بها عن بقية الكائنات .

فقد ذهب الفلاسفة منذ العصور الأولى للفلسفة إلى تعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق ، أى كائن عاقل . وذهب الأخلاقيون إلى القول بأنه حيوان أخلاقى ، أى كائن له قيم ، لأنه الوحيد فى هذا الوجود الذى له قيم يلتزم بها أو يُلزم نفسه بها .

ووجدنا الاجتماعيين يقولون : الإنسان مدنى بالطبع أو كائن اجتماعى ، ووجدنا علماء الدين يقولون : الإنسان كائن متدين ، لأنه لايوجد على ظهر الأرض كائن له خاصية التدين إلا الإنسان . والواقع أن كل هذه الأوصاف ، وغيرها كثير ، تنطبق على الإنسان .

وفضلاً عن ذلك حاول بعض الفلاسفة المعاصرين استخلاص بعض الخصائص الفريدة التى يتميز بها الإنسان ، ووجد أن أكثر ما يلفت النظر من هذه الخصائص خمس صفات ينفرد بها وحده من بين كل الكائنات ، وهى : التقنية ، والتراث ، والتقدم ، والقدرة على التفكير المجرد ، والتأمل.

أما أول هذه الخصائص وهى التقنية فإنها تتمثل أساساً فى استخدام الإنسان لآلات معينة من صنعه . فإنتاج الآلات المعقدة المحددة الأهداف عن طريق عمل طويل وشاق هو عمل إنسانى خالص . وما يشهده عالمنا المعاصر من ثورات علمية وتكنولوجية وثورات فى عالم الاتصالات والمعلومات خير دليل على ذلك .

أما ثانى هذه الخصائص فهى التراث . فالإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً ينمو فى المجتمع عن طريق التراث . وهذا التراث يتعلمه الإنسان ،

والإنسان وحده لديه لغة معقدة يستطيع من خلالها أن يتعلم تراثه ويحافظ عليه ويبنى على ما انتهى إليه سابقوه .

وثالث هذه الخصائص يتمثل فى التقدم . فبفضل التراث يتقدم الإنسان ، والذى يتعلم ليس فرداً فحسب وإنما الإنسانية . وكل جيل يعلم أكثر من سابقه . وليس للتقدم علاقة تذكر بالتطور البيولوجى للإنسان . فمن الناحية البيولوجية لا نكاد نختلف عن اليونان القدماء ، ولكننا نعلم ـ دون وجه للمقارنة ـ أكثر منهم .

ورابع هذه الخصائص هى القدرة على التجريد ، أى التفكير على نحو مختلف تماماً عن بقية الحيوانات . فالإنسان يستطيع أن يفكر فى الأشياء التى ليس لها غرض عملى فى الأساس مثل العلم من أجل العلم فقط ، وكذلك الدين الذى يتجاوز كل العالم المادى .

أما خامس هذه الخصائص فهى القدرة على التأمل : فتفكير الإنسان لا يتجه إلى العالم الخارجى فحسب ، بل يتجه أيضاً إلى ذاته . فهو يستطيع أن يفكر فى ذاته ويشعر بالقلق على نفسه ويبحث عن معنى حياته . ولعله هو الكائن الوحيد الذى هو على وعى تام بأنه لابد أن يموت .

وبمراعاة كل هذه الخصائص يمكن فهم ما انتهى إليه أفلاطون من أن الإنسان شيء مختلف تماماً عن كل الطبيعة . فالإنسان ، أو بالأحرى هذا الذى يجعله إنساناً أى النفس أو الروح أو العقل ـ كائن فى العالم بلا ريب ، ولكنه لا ينتمى إلى العالم ، إنه يرتفع فوق كل الطبيعة[1] .

١ـ انظر : مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخينسكى ومن ترجمتنا ص ٩٣ – ٩٥ ، دار الفكر العربى ، ١٩٩٦م .

وهكذا كان الإنسان ولا يزال وسيظل هو محور البحث والتفسير لدى الفلاسفة والمفكرين والعلماء فى مختلف التخصصات ، وفى كل العصور .

مفارقة غريبة :

وهناك مفارقة غريبة فى تكوين الإنسان . فقد بيَّن لنا القرآن الكريم أن الإنسان قد خُلِق ضعيفاً وأن الذباب لو سلبه شيئاً لا يستطيع أن ينقذه منه . ولكن الإنسان فى الوقت نفسه يتصور ـ فى ظروف معينة ـ أنه من القوة والجبروت بحيث يستطيع أن يخضع كل شيء لإرادته وسطوته. وأحداث التاريخ ووقائع الحياة تبين لنا أن بعض الناس من الملوك أو الحكام أو من غيرهم كان يشعر بهذا الشعور ويزهو بقوته ويتصور أنه ليس هناك من هو أقوى منه فى هذا الوجود ، مثلما فعل فرعون حين قال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] ، وقوله مبرهناً على هذه القوة : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف : ٥١] . وقول قارون مزهواً بقوته التى تتمثل فى غناه ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] . وأمثال ذلك كثير .

فكيف يمكن التوفيق بين ضعف الإنسان الذى أشار إليه القرآن الكريم ، وسلوك الإنسان المدلّ بقوته وجبروته وسطوته ؟

إننا من خلال عقد مقارنة سريعة بين الإنسان من جانب والحيوانات من جانب آخر ، يتضح لنا ابتداء مدى ضعف الإنسان إزاء فصائل الحيوانات المختلفة ، التى يتفوق بعضها على الإنسان فى كثير من الأمور التى تجعلها قادرة على الحفاظ على حياتها وعلى وجودها ، فى حين يفتقد الإنسان كل هذه الأمور أو بعضها ، الأمر الذى يجعله فى وضع أضعف منها كثيراً .

فقدرة الإنسان مثلاً على الإبصار وعلى السمع والشم محدودة بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تسمع وترى وتشم إلى مسافات بعيدة ، ثم إن طفولة الإنسان طويلة بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تقف على رجليها بعد الولادة بساعات وتعتنى بنفسها . ولكن الإنسان حَمْله وفصاله ثلاثون شهراً ، وبعد ذلك لا يستطيع أن يعتمد على نفسه ، بل يظل فى حاجة إلى العناية والرعاية مدة طويلة .

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن هناك كثيراً من الحيوانات لديها أسلحة طبيعية تدافع بها عن نفسها متمثلة فى المخالب والأنياب التى تجعلها قادرة على حماية نفسها والدفاع عن وجودها ضد أعدائها فى حين أن الإنسان ليس لديه شيء من هذه الأسلحة الطبيعية .

وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من الحيوانات أو كلها قد خلقها الله سبحانه وتعالى قادرة على تحمل تقلبات الجو من الحر والبرد ، ولكن الإنسان إذا ترك عارياً تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت[1] .

العقل الإنسانى ودوره :

وعلى الرغم من هذه المفارقة فقد استطاع الإنسان أن يُخضع كل ما فى هذا الوجود لإرادته : استطاع أن يستأنس الحيوانات المفترسة ، واستطاع أن يتغلب على كل الصعاب التى صادفته فى هذا الوجود ، وذلك بفضل شيء واحد تفوق به على كل أنواع الحيوانات المختلفة ، وهو العقل الذى وهبه الله إياه . وهذا يعنى أن الإنسان إذا كان فى موقف الضعيف من الناحية البدنية فإن قوته من الناحية العقلية لا تقارن بقوة الحيوانات .

١ـ راجع : مدخل إلى الفكر الفلسفى ، مرجع سابق ، ص٩٢ .

والجانب العقلى فى الإنسان هو أثر من آثار النفحة الإلهية الروحية التى أنعم الله بها على الإنسان عند خلقه ، والتى من أجلها استحق التكريم الإلهى والتفضيل على غيره من الكائنات . ويخبرنا القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧٢] .

ونتيجة لذلك أصبح للإنسان حياة روحية تعلو على كل ما هو أرضى ، وترتب على هذه النفحة الإلهية التى نسبها الله إلى ذاته أن أصبح الإنسان قريباً من الله . ففى كل إنسان أثر من آثار هذه النفحة الربانية ، بصرف النظر عن لونه أو جنسه أو معتقده .

وقد تمثل هذا الأثر الربانى فيما يمكن أن يطلق عليه اسم العقل الإنسانى أو الروح أو النفس أو ما يطلق عليه الغزالى أيضاً أنه عين فى قلب الإنسان خالية من كل النقائص العالقة بالرؤية البصرية .

وينبه الغزالى فى هذا الصدد إلى أن هذه التسميات المختلفة ليست أمراً جوهرياً ، وينبغى ألا يتوقف المرء عندها كثيراً ، لأن كثرة العبارات ـ كما يقول ـ تقود ضعيف البصيرة إلى توهم كثرة المعانى . والأمر هنا يدور فقط حول ملكة أو قدرة يتميز بها الإنسان العاقل عن الحيوان وعن المجنون ، وتسمى عادة بالعقل ، الذى هو مكمن القوة الحقيقية للإنسان[1] .

ومن ذلك يتضح أن القوة المادية ليست هى كل شيء فى حياة الإنسان ، فإنها لا تقارن بأى حال من الأحوال بالعقل الإنسانى الذى يستمد منه

١ـ مشكاة الأنوار للغزالى ص ٤٣ ، تحقيق أبو العلا عفيفى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤م .

الإنسان القوة الحقيقية . فالقوة المادية بدون العقل قوة غاشمة لا تعرف الحق من الباطل ولا تميز بين الصواب والخطأ . والإنسان ـ خليفة الله فى الأرض ـ مُطالب بتحكيم عقله فى كل أموره . وإذا فعل ذلك فهو قوى حتى لو كان ضعيفاً من الناحية المادية .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى حين لفت نظرنا إلى ضعف الإنسان البدنى ألا نغتر بالقوة المادية ، فهى قوة زائفة إذا غاب عنها العقل ، فإذا صاحبها العقل كانت قوة تبنى ولا تهدم ، وتعمر ولا تخرب ، وتقيم موازين الحق والعدل بين الناس .

والعقل يُعَد أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان . وقد وصفه الإمام الغزالى بأنه " أنموذج من نور الله " ، وقال عنه الجاحظ إنه وكيل الله عند الإنسان . وحتى يقوم العقل بأداء وظيفته على الوجه الأكمل حرص الإسلام على إزالة كل العوائق التى تعوقه عن ممارسة وظائفه . ومن هنا رفض الإسلام التبعية العقلية والتقليد الأعمى ، وقضى على الدجل والشعوذة والاعتقاد فى الخرافات ، وأزال الحواجز بين الله والإنسان . فالله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد .

مسئولية الخلافة فى الأرض :

وقد سخر الله للإنسان هذا الكون بما فيه ، وكلفه بتحمل مسئولية الحفاظ عليه وعمارته ، ولم يكن الإنسان يستطيع أن يمارس دوره المنوط به فى هذا الوجود إلا إذا كان حراً مختاراً . فإذا كان الله قد أراد له أن يكون خليفة فى الأرض فلا بد أن يكون حراً حتى يستطيع أن يتحمل هذه

المسئولية ، وقد أعطاه الله الآلية التى من خلالها يستطيع أن يقوم بدوره على أفضل وجه . وهذه الآلية هى العلم بجميع أبعاده . فقد أعطى الله آدم - الذى يمثل البشرية كلها - مفاتيح العلم والحضارة التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] . وعلى الإنسان فى كل العصور إلى آخر الزمان أن يستخدم كل إمكاناته العقلية فى البحث والدراسة والتطوير المستمر فى مختلف مجالات العلوم والفنون ، وبالتالى تطوير الحياة وإعمار الكون مادياً ومعنوياً كما أراد الله .

إن الإنسان - إذن - ليس ذرة تافهة فى هذا الوجود وإنما هو سيد فى هذا الكون بتكليف من الله . وهذا التكليف يتطلب الأمانة فى إدارة هذا الكون الكبير . وهذا يعنى أن على الإنسان فى إطار تحمله لهذه الأمانة الامتناع عن كل ما من شأنه أن يجلب الضرر بأى شكل من الأشكال لهذا الكون بما فيه من كائنات ومن فيه من البشر ، فإذا أساء الإنسان استخدام هذه الأمانة فستكون العاقبة وخيمة عليه وعلى غيره من الكائنات الأخرى حية كانت أم غير حية .

وإذا أردنا أن نتعرف على ما يمكن أن تسببه إساءة استخدام هذه الأمانة فعلينا أن نتذكر الخرق الذى بدأ يتسع فى طبقة "الأوزون" وما يمكن أن ينتج عن ذلك من مخاطر للبشرية كلها إذا لم تتدارك أخطاءها وتتلافى الأسباب المؤدية إلى هذه المخاطر . ويُذكِّرنا هذا الخرق فى طبقة الأوزون بالحديث الشريف الذى يصور فيه النبى عليه الصلاة والسلام البشرية كلها وقد اجتمعت فى سفينة ، بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها . فكان

الذين فى أسفلها إذا احتاجوا إلى الماء صعدوا إلى أعلى السفينة ، وبعد أن تعبوا من الصعود والهبوط ومضايقة الآخرين فكروا فى إحداث خرق فى أسفل السفينة يستقون منه حاجتهم من الماء . ويقول النبى : " فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"[1] .

ولنتأمل أيضاً بعض المشكلات التى تحيط بعالمنا المعاصر من تلويث للبيئة وظهور أمراض فتاكة لم تكن معروفة من قبل مثل أمراض نقص المناعة (الإيدز) ، وأسلحة الدمار الشامل وما تسببه من كوارث لحياة الناس وللبيئة التى تحيط بهم ، ناهيك عن الإشعاعات الذرية والكوارث التى تتسبب فيها والتهديدات المستمرة للحياة والأحياء على هذا الكوكب الذى نعيش فيه . كل هذه بعض الأمثلة لسوء استخدام الأمانة .

إن على الإنسان أن يفى بمسئولياته . وفى الوقت نفسه لا يجوز له أن يستهين بقدراته وملكاته التى تعينه على حمل الأمانة والوفاء بحقها . وعلى الرغم من أن الإسلام يركز دائماً على المسئولية الفردية ويؤكد أنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، فإنه من ناحية أخرى يحمِّل كل فرد أو جماعة مسئولية منع العبث بمصير هذا العالم ، كُلٌّ فى حدود طاقته . فعدم الاكتراث واللامبالاة يجعل الفرد مسئولاً مسئولية مشتركة مع المتسبب فى هذا العبث ، وذلك من منطلق حرص الإسلام على ضرورة المشاركة الإيجابية فى توفير كل وسائل الأمن والأمان والسلام والاستقرار لهذا العالم الذى هو عالمنا جميعاً .

١ـ صحيح البخارى (٢٣٦٣) من حديث النعمان بن بشير : كتاب الشركة .

إن العبث بأى شكل من الأشكال بمصير هذا العالم وبالبيئة التى تحيط بنا ، سواء صدر هذا العبث من فرد أو جماعة ، وسواء صغر هذا العبث أو كبر ، يعد منكراً وجرماً يندرج ضمن المنكرات التى حث النبى ﷺ على مكافحتها فى قوله: **" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان "** [1] .

حرية الإرادة والقضاء والقدر :

والسؤال الذى يمكن أن يطرح فى هذا الصدد هو : إذا كان لدى الإنسان هذه القدرات العقلية الواسعة التى أهَّلته لتدبير أمر هذا الكون والقيام بعمارته ، فهل لحريته وإرادته حدود يقف عندها أم أن تكليفه بعمارة الأرض تكليف مطلق ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هى علاقة حرية الإنسان وإرادته بالله سبحانه وبقضائه وقدره ؟

لا شك فى أنه إذا كان العقل الإنسانى يقوم بدور المشرع والمخطط لحياة الإنسان فإنه فى حاجة إلى أداة تكون مهمتها التنفيذ لما يراه العقل الإنسانى محققاً لسعادة الإنسان . وهذه الأداة هى الإرادة الإنسانية التى تقوم بالمهمة التنفيذية . ولكن الإرادة الإنسانية ليست مجرد أداة وإنما هى إرادة حرة فى مقدورها أن تستجيب لنداء العقل الإنسانى ، وفى مقدورها أيضاً أن ترفض وتفعل نقيض ما يريد . وهذا أمر واقع يستطيع كل إنسان أن يلحظه فى نفسه . فالعقل لا يعمل وحده فى تسيير سلوك الناس .

١ـ رواه مسلم فى صحيحه ـ كتاب : الإيمان – باب : بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان (حديث رقم ٧٠) من حديث أبى سعيد الخدرى .

فهناك بالإضافة إلى ذلك رغبات متنوعة وشهوات وأهواء تحاول فرض نفسها على توجهات الناس . فالصراع مستمر بينها وبين العقل .

ويمكن تقريب ما يدور فى نفس الإنسان من صراع بما نعرفه فى حياتنا من سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية . فالعقل هو صاحب السلطة التشريعية فى نفس الإنسان . وإرادة الإنسان تمثل السلطة التنفيذية ، والضمير يمثل السلطة القضائية التى تحدد المسئولية وتحكم على الأفعال الصادرة عن الإنسان ، إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر .

وعلى الإنسان الواعى أن يوازن بين هذه السلطات الثلاث حتى لاتطغى أىٌّ منها على الأخرى . وفى كل الأحوال فالإنسان مسئول عن كل ما يصدر عنه من أفعال مسئولية كاملة .

ودون الدخول فى تفاصيل الخلاف العريض بين أصحاب الجبر وأصحاب الاختيار نود فقط أن نلفت النظر إلى أن الله قد خلق نوعين من المخلوقات أحدهما مسخَّر لا إرادة له ولا حرية ولا اختيار ، وليس أمامه إلا الطاعة والامتثال . ويتمثل هذا النوع فى كل مخلوقات الله عدا الإنسان .

أما النوع الثانى وهو الإنسان فإنه مخلوق مكلف . والتكليف ـ كما سبق القول ـ مسئولية . والمسئولية لا تقوم إلا على دعامة من الحرية فى الفعل أو الترك حتى فى أمور العقيدة . ويترتب على ذلك بطبيعة الحال قضية الثواب والعقاب .

صحيح أن الله يعلم كل ما سيقوم به كل فرد من خير أو شر ، ومن إيمان أو كفر ، ولكن علم الله هنا ليس علم إكراه على الفعل أو الترك ،

وإنما هو علم أزلى كاشف بما سيقع من هذا الشخص أو ذاك ، أما وقوع الفعل نفسه أو عدم وقوعه ، فهو فى أساسه من صميم حرية الشخص نفسه . وليس فى هذا ما يطعن فى القضاء والقدر من قريب أو من بعيد . فكل شيء قد قدَّره الله فى الأزل ، وهذا أمر لا جدال فيه . ولكن خلق الإنسان بإرادة حرة ، هو أيضاً من بين ما قدره الله فى الأزل . وهذه نقطة فى غاية الأهمية لإدراك عدم وجود أى تناقض بين القضاء والقدر وحرية الإرادة الإنسانية .

ومن المعلوم أن التفكير البشرى يدور فى إطار الزمن الذى ينقسم إلى ماض وحاضر ومستقبل ، أما الله سبحانه فإنه هو نفسه خالق الزمن ولاتسرى عليه دورات الزمن ولا تقسيماته مثلما هو الحال لدى البشر . فكل شيء بالنسبة لله حاضر ما كان وما سيكون وما هو كائن . وإذا كان الأمر كذلك فإن علمه سبحانه كاشف لكل ما يحدث فى هذا الوجود فى جميع مراحل الزمن وما قبله وما بعده . وعندما يتعلق الأمر بالإنسان فإن القضاء والقدر يُعد تسجيلاً لما علمه الله فى الأزل من سلوك لهذا الإنسان أو ذاك باختياره دون ضغط أو إكراه .

خاتمة :

إن موضوع الإنسان موضوع متشعب الجوانب متعدد الوجوه والأبعاد، ولايمكن استيعاب الحديث عنه فى دقائق معدودة . وقد أردنا بهذه الخواطر السريعة التى عرضناها على حضراتكم أن نحييكم فى بداية مؤتمركم المبارك إن شاء الله .

وفى الختام أود أن أؤكد أن معرفة موقع الإنسان فى تعاليم الإسلام وفى الفكر الإسلامى المستنير ، والوعى بدوره العظيم فى دفع عجلة التقدم فى مجتمعاتنا الإسلامية هو البداية الصحيحة نحو السعى الحثيث لتغيير الواقع المتخلف للأمة وتحقيق نهضة جديدة فى عالمنا الإسلامى تعيد له مكانه ومكانته فى عالم اليوم الذى لم يعد فيه مكان للضعفاء أو المنغلقين على أنفسهم أو المتواكلين الغافلين عما يدور حولهم .

والحقيقة التى لاينبغى أن تغيب عن الأذهان أن التغيير الحضارى المنشود لن يسقط على الأمة من السماء ، فزمن المعجزات قد انتهى منذ أربعة عشر قرناً من الزمان . والإرادة الإنسانية هى المنوط بها إحداث النقلة الحضارية المأمولة طبقاً للقانون القرآنى القائل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

صدق الله العظيم

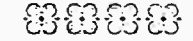

٢ تجديد الفكر الدينى(*)

١ ـ تمهيد :

من المعلوم أن التجديد سنة الحياة وقانون الوجود ، وقد عبر عن ذلك الفيلسوف اليونانى القديم هراكليت بقوله : " إن الأشياء فى تغير متصل " ، ويصور ذلك بجريان الماء فى النهر ويقول : " أنت لا تنزل النهر مرتين فإن مياهاً جديدة تجرى من حولك أبداً " .

والحياة بطبيعتها فى حركة مستمرة ، وهذا أمر يستطيع كل إنسان أن يدركه دون عناء ، ولكن الحياة لا تشتمل فقط على مبدأ التغير وإنما تشتمل كذلك على مبدأ آخر مقابل للتغير وهو الثابت . والفكر الإسلامى حريص على التمييز بين الثابت والمتغير . فالذات الإلهية هى الأصل الروحى لكل حياة .

ومن هنا فإن إخلاص الإنسان لله ـ كما يقول المفكر الإسلامى المعروف محمد إقبال ـ إنما يكون بمثابة إخلاصه لطبيعته المثالية الخاصة من ناحية ، وللمبدأ الروحى الأول لكل حياة ـ كما يصوره الإسلام ـ من ناحية أخرى ، وهذا المبدأ الروحى مبدأ أبدى ، يرينا الآيات الدالة عليه فى التنوع والتغير ، فالأبدى الخالد من شأنه أن يثبِّت أقدامنا فى عالم التغير المستمر .

---

* محاضرة ألقيت فى منتدى الحوار بمكتبة الإسكندرية فى ٢٤ / ١ / ٢٠٠٩م .

أما إذا فهمنا أن المبادىء الأبدية تستبعد كل إمكان للتغيير فإن هذا الفهم يجعلها تنزع إلى تثبيت ما هو أساساً متغير فى طبيعته .

والفكر الإنسانى فى حركة مستمرة ، وهو الذى يحرك الحياة . ويطلق الفكر بوجه عام ويراد به جملة النشاط الذهنى ، كما يراد به أيضاً حركة التصورات والمفاهيم . وهذا يعنى أيضاً أن الفكر يمثل نشاطاً وحركة مستمرة ، فإذا توقفت هذه الحركة فإن ذلك يعنى توقف حياة الإنسان أو غيابه عن الوعى . ولعل هذا ما دعا الفيلسوف المعروف ديكارت إلى اعتبار الفكر مساوياً للوجود حين قال عبارته الشهيرة : " أنا أفكر إذن أنا موجود " . فإذا وصفنا الفكر بأنه علمى فمعنى ذلك أنه فكر منظم . فالإنسان حينئذ لا يترك مفاهيمه وتصوراته حرة تحوم فى نفسه كيفما اتفق ، وإنما يقودها بكل حزم على أسس منهجية إلى هدفه الذى هو العلم .

وعندما نصف الفكر بأنه دين فلا يعنى ذلك أنه فكر مضاد للعلم ، وإنما هو أيضاً – إذا سار فى مساره الصحيح ـ يعد فكراً منظماً يقوم على أسس وقواعد من شأنها أن تؤدى إلى معلومات دينية صحيحة .

٢ ـ التجديد ضرورة حياتية :

وإذا كان الفكر هو الذى يحرك الحياة فإن التجديد فى الفكر وفى الحياة متلازمان لا انفصال بينهما ، وبدون هذا التجديد سيبقى كل شيء على حاله دون تغيير ، وبذلك تتجمد الحياة وتصبح حياة لا طعم لها ولا لون ولا رائحة . وهذا أمر مضاد لطبيعة الحياة ذاتها .

ونظراً لأن الفكر الدينى يعد جزءاً لا يتجزأ من الفكر الإنسانى فإنه يمكن القول بأن تجديد الفكر الدينى يعد ضرورة حياتية .

والحديث عن التجديد فى الفكر الدينى فى الإسلام يستدعى فى الذهن الحديث عن العقل وعن الاجتهاد ، فهما عماد التجديد ، أما المقابل للتجديد فهو الجمود والانغلاق .

وإذا كان التجديد يعنى التقدم إلى الأمام ، فإن الجمود يعنى التخلف بمختلف صوره وأشكاله . وقضية تجديد الفكر الدينى ليست قضية هامشية وإنما هى قضية لها أهميتها البالغة فى حياة المسلمين ، وذلك لما للدين من عمق عميق فى النفوس .

والأمر الذى لا جدال فيه ولا يستطيع أحد إنكاره هو أن الفكر الدينى فى العالم الإسلامى قد توقفت مسيرته ، وركن إلى السكون وفقد حيويته ، وجرّ معه بالتالى المجتمع الإسلامى الذى لا يزال يرزح تحت وطأة التخلف ، ولا يجادل فى وجود هذا التخلف إلا مكابر .

٣ ـ المقصود بالتجديد :

فما الذى يُقصد بالتجديد ، أو تجديد الفكر الدينى بصفة خاصة ؟

فى البداية نود أن نؤكد بصفة عامة على أن التجديد من طبيعة الإسلام .

وأنه لا تناقض بين تعاليم هذا الدين وبين التجديد . فالنبى نفسه أول من تحدث عن التجديد فى الدين بقوله : **" إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها "** [1] .

١ـ أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الملاحم – باب ما يذكر فى قرن المائة (حديث رقم ٣٧٤٠) من حديث أبى هريرة .

وإذا كان القرآن يعتبر الكون متغيراً وأن ذلك من الآيات الدالة على الوجود الإلهى فإنه من الطبيعى أن يكون الإسلام مشجعاً على التجديد ودافعاً إليه حتى لا يتخلف المجتمع الإسلامى عن ركب التطور .

ومن الأمور الجديرة بالنظر فى هذا الصدد أن علماء الكلام حينما أرادوا التدليل على وجود الله لجأوا إلى استخدام مقدمات منطقية تنطلق من التغير البادى فى الوجود . وبنوا عليها النتيجة التى تؤكد وجود الله ، وذلك على النحو التالى : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، إذن العالم حادث . وهذه النتيجة جعلوا منها مقدمة أولى فى القياس المنطقى التالى : العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، إذن العالم لابد له من محدث وهو الله .

وقد أسند القرآن الكريم التغيير إلى إرادة الإنسان فى المقام الأول ، وجعله شرطاً للتغيير الذى يحدث بإرادة الله ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

والحديث النبوى المشار إليه من شأنه أن يدفع علماء الدين المسلمين إلى التجديد المستمر فى الفكر الدينى ؛ لأن الدين بطبيعته قد جاء ليكون ديناً للحياة بجميع أبعادها . ومن هنا فإنه لا يجوز أن ينفصل عن الحياة والتأثير فيها . فإذا تم عزله عن الحياة فسيتحول إلى مجرد رسوم وطقوس شكلية لا روح فيها ولا حياة .

والتجديد فى الفكر الدينى عمل يقوم به الإنسان الذى يرتاد الطريق لقومه فيرى ما لا يرون . والذين يرتادون الطريق ويتقدمون الصفوف

لكشف معالمه هم الرواد فى كل أمة وهم المجددون . وقد شهد تاريخ الفكر الإسلامى العديد من هؤلاء الرواد الذين أثروا الحياة الإسلامية والفكر الإسلامى برؤاهم السديدة وأفكارهم الرشيدة .

وقبل أن نتحدث عن الجهود القديمة والحديثة فى تجديد الفكر الدينى فى الإسلام نرى أنه من الملائم أن نتحدث بشيء من التفصيل عن مظاهر تخلف الفكر الدينى حتى نتعرف من خلال ذلك على العوامل التى أدت إلى هذا التخلف . فالتشخيص الصحيح للمرض يفتح الباب للعلاج الصحيح . ومن هنا قيل : إن التشخيص يعد نصف العلاج .

٤ ـ مظاهر تخلف الفكر الدينى :

إن مما لا شك فيه أن تخلف الفكر الدينى فى العالم الإسلامى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراجع الحضارى للأمة الإسلامية . فالظروف التى عاشتها هذه الأمة بعد أفول شمس الحضارة الإسلامية فى الأندلس منذ أكثر من خمسة قرون ظروف متشابهة إلى حد كبير ، والأطماع الاستعمارية فى بلاد العالم الإسلامى وفى ثرواته لم تستثن بلداً دون آخر .

ومن شدة خشية التيار المحافظ على الدين من الضياع تمسك بالقديم وعَضَّ عليه بالنواجذ ، وأغلق الأبواب والعقول حتى لا تستقبل أى جديد ثقافى وافد قد يزعزع أركان العقيدة ، ويتسبب فى ضياع تراث الأمة ، ويعمل على محو شخصيتها . وقد كان لهذه العزلة الثقافية والانغلاق الحضارى آثار سلبية عمّقت الانغلاق الفكرى والتخلف الحضارى ، وتجلى

ذلك كله بوضوح فى العديد من المظاهر التى تعبر جميعها عن مدى تخلف الفكر الدينى فى محيطنا الإسلامى حتى اليوم .

وأبرز هذه المظاهر ما يلى :

أولاً : إغلاق باب الاجتهاد وتعطيل العقل عن أداء دوره المنوط به فى هذه الحياة :

والاجتهاد ـ الذى يعده محمد إقبال مبدأ الحركة فى الإسلام ـ هو الآلية التى اعتمدها الإسلام للتجديد المتواصل فى كل الأمور الحياتية ، وبصفة خاصة فى مجال الفقه الإسلامى واستنباط الأحكام الشرعية .

وطلاب العلوم الدينية يعرفون الأساس الذى اعتمد عليه مبدأ الاجتهاد . فعندما بعث النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ معاذ بن جبل قاضياً إلى اليمن سأله : " **بماذا تقضى إذا عرض لك قضاء ؟** " قال : بكتاب الله . قال : " **فإن لم تجد فى كتاب الله ؟** " قال : فبسنة رسول الله . قال : " **فإن لم تجد ؟** " قال : أجتهد رأيى ولا آلو ـ أى لا أقصر[1] .

ومن المعروف فى الدراسات الفقهية أن النصوص التى يرجع إليها الفقهاء محدودة ، ولكن وقائع الحياة ومستجدات كل عصر لا تنتهى . ومن أجل ذلك فإن إنزال النصوص على وقائع الحياة يتطلب عقلاً راجحاً ،

١ـ أخرجه أبو داود فى سننه ، باب اجتهاد الرأى فى القضاء (حديث ٣٦١٩) ، وكذا الترمذى فى سننه ، باب ما جاء فى القاضى كيف يقضى . (حديث ١٢٤٩) من حديث معاذ بن جبل .

وأفقاً واسعاً وفقهاً واعياً . وقد أدرك علماء الأمة وفقهاؤها ذلك جيداً منذ الصدر الأول للإسلام ، وأعملوا عقولهم فى فهم النصوص من جانب ، وفى إنزالها على وقائع الحياة من جانب آخر . والتمكن من هذين الجانبين يعد أمراً ضرورياً للتوصل إلى رأى فقهى سديد .

وعلى هذا الأساس انفتح باب الاجتهاد واسعاً أمام المجتهدين الذين قاموا بمهمتهم خير قيام . ونظراً لأن العقول تتفاوت والأفهام تختلف فى إدراكها وتصوراتها كان من الطبيعى أن يكون هناك اختلاف فى الآراء بين المجتهدين على مر العصور . ومن هنا نشأت مذاهب الفقه الإسلامى المتعددة التى تعبر عن حيوية الفكر الدينى فى ذلك الزمان .

وهكذا كان مبدأ الاجتهاد فتحاً جديداً فى تاريخ التشريع الإسلامى . وتشجيعاً من الإسلام على ممارسة الاجتهاد فى المجتمع الإسلامى قرر النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن المجتهد إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد ، وإذا أصاب فله أجران .

ولكن العقول المتحجرة قررت إغلاق باب الاجتهاد زاعمة أن الأوائل الذين أسسوا مذاهب الفقه الإسلامى قد درسوا كل شيء ولم يترك الأول للآخر شيئاً وليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وقد تجمد الفكر الدينى بتجمد الاجتهاد ، ووقف الفكر الدينى عند فترات التراجع الحضارى يجتر من تراثها ويعود باستمرار إلى ما أفرزته من جمود فكرى متحجر .

ثانياً : التقليد :

وقد أدى تجمد الفكر الدينى بطبيعة الحال إلى التقليد الأعمى للسابقين دون مراعاة لاختلاف الظروف ومتغيرات كل عصر . وقد ترسخ هذا التقليد لدى الغالبية العظمى من فقهاء المسلمين حتى اليوم.

والملاحظ أنه حتى يومنا هذا نجد فقهاءنا حين يبحثون عن حل شرعى لمشكلة جديدة فإنهم يبحثون عن حل لها لدى بعض المذاهب الفقهية القديمة وفى بطون الكتب التى أُلِّفَ الكثير منها فى عصور التراجع الحضارى للأمة الإسلامية .

ومنذ أكثر من قرن من الزمان عاب الشيخ محمد عبده على الفقهاء مسلكهم هذا وتمسكهم الحرفى بما جاء فى هذه الكتب على الرغم من اختلاف ظروف الزمان والمكان . وفى ذلك يقول : " لقد جعل الفقهاء كتبهم هذه على علاتها أساس الدين .. فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث وانحصرت أفكارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف فى الآراء والركاكة " [1].

فهل يعقل أن تكون الحلول التى توصل إليها الفقهاء السابقون ـ مع احترامنا لاجتهاداتهم التى كانت مناسبة لعصورهم ـ هى نفس الحلول لمشكلاتنا المعاصرة ؟ إن هذا فى الحقيقة ضرب من المستحيل .

١ـ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، تحقيق : د. محمد عمارة ، ج٣ ص ١٩٥ .

وسأضرب بعض الأمثلة على شيوع التقليد غير المقبول لدى الكثيرين من فقهائنا المعاصرين إلى الحد الذى يصل إلى إلغاء عقولنا تماماً وإلغاء وظيفتها فى التفكير .

فقد بحث الفقهاء فى الآونة الأخيرة قضية اشتغال المرأة بالقضاء . وبدلاً من أن ينظروا أولاً فى وضع المرأة فى المجتمع المعاصر ومدى ما وصلت إليه من ثقافة راقية وعقلية واسعة وأفق رحب وتخصص دقيق فى جميع مجالات العلوم والفنون ، بدلاً من ذلك كله لجأ فقهاؤنا الأجلاء إلى البحث فى بطون الكتب القديمة عما قاله أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة فى هذه القضية منذ أكثر من ألف عام ، وتوصلوا إلى أن مذاهب الشافعية والمالكية والحنبلية لا يقرون تولّى المرأة القضاء بجميع درجاته .

أما بعض الحنفية فقد أجازوا أن تتولى المرأة القضاء فى الأحوال الشخصية والمدنية . ولكنها ليست مؤهلة لتولى القضاء فى الجنايات ، على الرغم من عدم وجود نص قاطع فى تعاليم الإسلام يحرم المرأة من هذا الحق.

والأمر الذى لا شك فيه أن آراء الفقهاء السابقين كانت وستظل مجرد اجتهادات تخطيء وتصيب .

وفى مثال آخر دار البحث حول ختان الإناث الذى هو مجرد عادة وليس عبادة ، وأن ما ورد بشأنه من أحاديث كلها ضعيفة لا تقيم حجة ولايُعتد بها . ولكن أحد الشيوخ الأجلاء عندما بحث هذه القضية لجأ إلى

البحث عما قاله السابقون وانتهى فى ختام بحثه إلى نتيجة مروعة مردداً فى هذا الصدد ما ذهب إليه بعض أصحاب المذاهب الفقهية من رأى يقول : لو اتفق أهل بلد على عدم ختان الإناث فعلى الإمام أن يقاتلهم على ذلك.

ومن هذه الأمثلة ـ وغيرها كثير ـ يتضح لنا مدى نظرة فقهائنا المعاصرين إلى الفقهاء السابقين ، وهى نظرة تصل إلى حد العصمة . ولكن السبق فى الزمان ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ ليس آية من آيات العرفان ولا مُعلياً لعقول على عقول . فالسابق واللاحق يستويان فى التمييز والفطرة . وهناك إمكانات متوافرة أمام اللاحق لم تكن متاحة لمن سبقه . "فاللاحق له من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه" [1].

وينقل محمد إقبال عن أحد علماء القرن العاشر الهجرى قوله بأن الاجتهاد أيسر للعلماء اللاحقين من العلماء السابقين . فتفاسير القرآن وشروح الحديث قد تعددت إلى حد جعل بين يدى من يريد الاجتهاد اليوم من المادة أكثر مما يحتاج . وإذا كان هذا ما يقوله أحد علماء القرن العاشر الهجرى فما بالنا ونحن فى عصر ثورة المعلومات والاتصالات ووفرة الإمكانات المتاحة أمامنا اليوم على نحو لم يخطر لأحد من السابقين على بال؟

ولكن آفة التقليد الأعمى قد تمكنت ـ للأسف الشديد ـ من عقول أغلب الفقهاء المعاصرين .

١ـ رسالة التوحيد ص ١٥٤ ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

والتقليد ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ : ضلال يعذر فيه الحيوان ، ولكنه لا يصح بحال من الأحوال من الإنسان القادر على التفكير والتمييز .

ويدل التقليد على غياب فقه الواقع عن أذهان فقهائنا فى العصر الحاضر . فهم قانعون بما لديهم من علم قديم ورثوه عن الأسلاف ، غافلين عن أن الفتوى فى أمور الدين تتطلب فهماً دقيقاً لوقائع الحياة المتجددة دوماً.

والأمر الجدير بالذكر أن أئمة المذاهب الفقهية أنفسهم كانوا ضد التقليد ، ولم يكن أى منهم يدعى لنفسه أنه وحده الذى يمتلك الحقيقة ، فالشافعى يُروى عنه قوله : " رأينا صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب " .

وقد قيل للإمام أبى حنيفة : إن ما تفتى به هو الحق الذى لا مراء فيه ، فردَّ قائلاً : " لست أدرى لعله الباطل الذى لا مراء فيه " . وقد رفض الإمام مالك اقتراح الخليفة أبى جعفر المنصور بإلزام المسلمين بكتابه (الموطأ) وهو كتاب فى الحديث وفى الفقه أيضاً ، لأن إلزام المسلمين بذلك معناه الوقوف فى وجه أى تفكير مخالف قد يكون صحيحاً ، وهذا أمر لايرضاه الإمام مالك .

وقد أراد الإسلام لنا أن نمارس الاجتهاد لنواكب متغيرات كل عصر . ونحن نعلم أن الإمام الشافعى عندما جاء إلى مصر واستقر به المقام فيها بدأ يعيد النظر فى الآراء والفتاوى التى قال بها حينما كان فى بغداد ؛ لأن الفتوى يجب أن تراعى أعراف كل قطر من الأقطار .

وفى هذا المعنى يقول ابن القيم :

" من أفتى الناس بمجرد النقول من الكتب على اختلاف أعرافهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين " .

وعندما أفتى الشيخ شلتوت بجواز الحصول على فوائد الأموال المودعة فى صناديق التوفير اعتمد على أنها معاملة جديدة لم يعرفها العلماء السابقون ، وأنها تحقق المصلحة للصناديق الحكومية من ناحية وللأفراد المودعين من ناحية أخرى .

فالشيخ شلتوت بسعة أفقه وإدراكه لمقتضيات العصر ومصلحة المجتمع انتهى إلى فتواه التى واجهت معارضة شديدة حتى يومنا هذا لدرجة أن البعض أشاع أن الشيخ قد رجع عن فتواه قبل وفاته . وهذا غير صحيح . وكتابه الفتاوى قد طبع أكثر من عشرين طبعة وعنوانه : " الفتاوى : دراسة لمشكلات المسلم المعاصر فى حياته اليومية العامة " . وقد استوحى الشيخ فى آرائه روح الشريعة الإسلامية التى تقوم على التيسير ورفع الحرج عن الناس .

وبالمثل عندما بحث فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى فوائد البنوك وقال بأنها حلال درس القضية من جميع جوانبها .

وأعلم عن يقين أنه عقد العديد من الاجتماعات على مدى شهور عديدة مع خبراء البنوك ورجال الاقتصاد قبل أن يصدر فتواه . ولكن الغالبية العظمى من الفقهاء فى مصر وخارجها لا يزالون مصرِّين على

تحريم المعاملات البنكية اعتماداً على آراء الفقهاء السابقين الذين لم يعرفوا مثل هذه المعاملات أصلاً .

ثالثاً : اختزال الإسلام فى الشعائر التعبدية والحدود :

ومن مظاهر تخلف الفكر الدينى أيضاً اختزال الإسلام إما فى مجموعة الشعائر التعبدية وفصله عن الحياة والاهتمام بالمظاهر الشكلية البعيدة عن جوهر الدين ، والاعتقاد فى الخرافات ، وشيوع عقيدة الجبر والتواكل بين الناس ، أو اختزال الإسلام فى عقوبات الحدود وغياب الفهم الصحيح لمقاصد الشريعة الإسلامية ، والاتجار بالشعارات الدينية لأهداف لا صلة لها بالدين .

ويتصل بذلك كله انتشار مصادر التثقيف السيئة التى تدعو إلى التعصب والتشدد بالإضافة إلى المذهبية المتحجرة التى تنشر الجهل بين الناس .

وقد أشار الشيخ محمد عبده إلى أن أخطر العقبات التى تعطل عمل العقل الإنسانى وتحول بينه وبين أداء دوره الفاعل فى الحياة وفى الدين تتمثل فى التقليد وفى تخدير العقل عن طريق المصادر السيئة للتثقيف . ويضرب المثل بهذه المصادر فيقول : " إنها كتب الأكاذيب الصرفة ، وهى ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، ومنها كتب الخرافات . وهى تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات إلى الأرواح الشريرة المعبَّر عنها بالعفاريت ، وتارة تتكلم فى ارتباط الحوادث

الجوية والآثار الكونية ببعض الأسباب التى لا مناسبة بينها وبين ما زعموه ناشئاً عنها ، وتارة تثبت ما لا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف " [1].

ويذكر الشيخ الغزالى أن من بين ما وقع فى يده كتاب لمؤلف من الجزيرة العربية زعم فيه المؤلف أنه أتى فيه بثمانية وأربعين دليلاً من القرآن على أن الأرض لا تدور . ويعلق الشيخ على ذلك قائلاً : " لقد نظرت فى هذه الأدلة فإذا هى تفاسير خاطئة لآيات القرآن الكريم مال بها المؤلف المسكين عن وجهتها ليشعر الناس بأن الإسلام والعلم الحديث خصمان لايتفقان " [2].

رابعاً : الخلط بين المفاهيم الدينية :

كالسنة والبدعة والكفر والإلحاد ، وانتشار دعاوى التكفير من جانب من يزعمون أنهم حماة الدين المدافعين عنه ، واحتكارهم للدين ، وكأن الله قد وكّلهم وحدهم بالتحدث باسمه ، والحكم على هذا أو ذاك بالمروق من الدين .

ويكفى أن تخالف رأياً لهؤلاء ليحكموا عليك بالكفر أو الإلحاد أو الزندقة، ولا يدرى هؤلاء أن رمى الآخرين بالكفر مردود على صاحبه . فقد ورد عن النبى ﷺ قوله : **"من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما"** [3] . وقد نهى القرآن

١ـ الأعمال الكاملة ، ج٣ ص ٥٠ .

٢ـ مائة سؤال عن الإسلام للشيخ محمد الغزالى ، ص ٢٤٥ .

٣ـ متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٥٦٣٩) باب (من كفّر أخاه بغير تأويل). وكذا مسلم فى صحيحه (حديث ٩١) . كلاهما من حديث ابن عمر .

الكريم عن سَبِّ الكافرين فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

وقد رُوِى عن الإمام مالك وغيره ما ذكره الشيخ محمد عبده : " لقد اشتهر بين المسلمين وعُرِف من أحكام قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حُمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر " .

وقد جعل هؤلاء المتعصبون الجاهلون من الدين قائمة محرمات . فكل شيء حرام على الرغم من أن التحريم فى الإسلام لا يكون إلا بنص صريح.

والأصل فى الأشياء هو الحِلُّ لا الحرمة . ولكن ضيق الأفق وسطحية التفكير وغياب التفكير النقدى يجعل لهذه الفئات المتعصبة تأثيراً على عقول عامة الناس . وقد ساعد على ذلك فى السنوات الأخيرة ما تبثه الفضائيات من فتاوى تعبر عن الجهل وضحالة التفكير وانعدام الشعور بالمسئولية الدينية ، وعدم الفهم لفقه الواقع . ويصر هؤلاء الجهال على رفض ما ذهب إليه أبو حنيفة ـ مثلاً ـ من أن إخراج زكاة الفطر نقداً أصلح للفقير ويقولون : لا تُقبل إلا أن تكون شعيراً أو تمراً .

كما يفتى بعض الجاهلين الذين يحرمون التصوير جملة وتفصيلاً بأن الكتب المدرسية إذا اشتملت على صور البشر وأصبح ذلك مما عَمَّتْ به البلوى ، فالفتوى هى قطع رءوس هذه الصور حتى لا تكون ممثلة لكائن بشرى وهو أمر محرم فى عرفهم لا يجوز شرعاً .

خامساً : افتعال عداوة بين الاستنارة والدين :

فالذى يدعو إلى الاستنارة فى نظر المتعصبين الجاهلين يعد علمانياً ملحداً ، على الرغم من أن الاستنارة والتنوير من النور ، والإسلام بنص القرآن جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . واستنار بمعنى طلب النور . والله نور السموات والأرض ، والإسلام دين يدعو إلى تمكين العقل من بسط نوره على كل شيء فى هذا الكون ، والتنوير يريد ذلك أيضاً !!

سادساً : شيوع الفهم المتخلف لدور المرأة فى المجتمع :

والنظر إليها على أنها كائن أقل شأناً من الرجل . ويصر الجاهلون المتعصبون على هذه النظرة الدونية للمرأة حتى لو وصلت إلى أرقى مراتب الثقافة والمعرفة .

وقد رأينا ما انتهى إليه فقهاء اليوم بشأن اشتغال المرأة بالقضاء . ويحتج هؤلاء الجاهلون بأن شهادة المرأة نصف شهادة الرجل وأن نصيبها فى الميراث نصف نصيب الرجل وأن هذا دليل على أنها فى مرتبة أدنى من الرجل ، وهذا فهم خاطئ انتشر بين الفقهاء وترسخ فى الأذهان منذ قرون.

وحقيقة الأمر فى موضوع شهادة المرأة أنها مساوية تماماً لشهادة الرجل. وللقاضى أن يحكم بشهادة رجل واحد أو امرأة واحدة طالما اطمأن قلبه لذلك .

أما الآية الواردة فى القرآن الكريم والتى اعتمد عليها الفقهاء وعمموها ـ دون دليل ـ على جميع أنواع الشهادة فإنها لا تتعلق بالشهادة أصلاً ، وإنما تتعلق بالإشهاد على الدَّيْن فقط ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ

بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وهذه الآية توصى الدائن والمدين بكتابة ورقة بينهما لحفظ حق الدائن ، وأن يشهد على ذلك رجلان أو رجل وامرأتان . وليس فى ذلك إلزام على الدائن والمدين . فإذا لم يكتبا ذلك فلا حرج عليهما ، أما شهادة امرأتين هنا فإنه يرجع إلى عدم خبرة المرأة حينذاك فى الأمور المالية ولذلك سببت الآية ذلك بقوله : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ . بمعنى أن تنسى إحداهما فتذكرها الأخرى وذلك زيادة فى الاستيثاق . أما ما عدا واقعة الإشهاد هذه فشهادة المرأة مساوية لشهادة الرجل تماماً . وقد أخطأ بعض الفقهاء فى تعميم الحكم على كل أنواع الشهادة .

وأما مسألة الميراث فإن الآية الواردة فى هذا الشأن هى قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ﴾ [النساء : ١١] . والآية واضحة تماماً فى أنها فى شأن أولاد المتوفى وفى حالات محدودة . والتفرقة هنا لها سبب اقتصادى بحت . فالولد فى الأسرة يتحمل مسئولية الإنفاق على أبويه وإخوته وأخواته وعلى أسرته إذا كان متزوجاً ، أما نصيب البنت فإنها ليست ملزمة أصلاً بالإنفاق منه على أحد من أفراد الأسرة ، وإذا كانت متزوجة فنفقتها على زوجها . ولها الحق فى استثمار ما يؤول إليها من ميراث دون وصاية من أحد .

وقد حقق العلماء الثقات مسألة الميراث ووجدوا أن المرأة ترث نصف الرجل فى أربع حالات فقط للأسباب المشار إليها . ولكن هناك أكثر من ثلاثين حالة ترث فيها المرأة مثل نصيب الرجل أو أكثر منه ، أو ترث وهو لا يرث .

وهذا مثال على ذلك :

إذا توفيت زوجة وتركت زوجاً وبنتاً وأماً وأباً وأخاً فيكون توزيع التركة على النحو التالى :

الزوج	البنت	الأب	الأم	الأخ
الربع	النصف	السدس	السدس	محجوب

ويلاحظ فى هذا المثال :ـ

١ ـ أن البنت وهى أنثى ورثت ضعف الزوج وهو ذكر ، وأكثر من ضعف ميراث الأب وهو ذكر .

٢ ـ ميراث الأم وهى أنثى مثل ميراث الأب وهو ذكر .

٣ ـ الأنثى (الأم والبنت) ورثت ، والذكر (الأخ) لم يرث .

سابعاً : وهناك مظاهر أخرى لتخلف الفكر الدينى :

وتتمثل فى البحث عن الإعجاز العلمى فى القرآن دون التركيز على البحث العلمى والتنافس فيه مع الآخرين . والأمر الجدير بالذكر أن البحث فى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم مبنى على ما توصل إليه

علماء الغرب من نتائج علمية باهرة . فحتى هؤلاء الباحثون عن الإعجاز العلمى هم عالة على علماء الغرب .

وهناك أيضاً محاولات لأسلمة العلوم . ومن المعلوم أن العلم لا وطن له ولا دين . وقد أُمرنا أن نطلب العلم ولو فى الصين . فهل العلم الذى نطلبه فى الصين أو فى غيرها من البلدان غير الإسلامية علم دينى أم هو مطلق العلم الذى هو قسمة مشتركة بين البشر جميعاً ، وكلٌّ يصل إلى هذا العلم حسب الجهد الذى يبذله فى البحث والتنقيب ؟

إننا عندما نقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] . نجد أن ختام الآية واضح فى أن آيات الله فى الكون وفى الإنسان لن تتضح إلا لكل من يُعمِل عقله وفكره بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو معتقده . وقد فكر الآخرون وبحثوا ودرسوا ووصلوا إلى ما وصلوا إليه من نتائج علمية باهرة . أما المسلمون فقد وقفوا ـ للأسف الشديد ـ عند التغنى بالأمجاد واجترار الذكريات الجميلة .

وقد عاب جمال الدين الأفغانى هذا الموقف من المسلمين . فقد زاره شكيب أرسلان عندما كان شبه أسير فى الآستانة . ودار الحديث بينهما حول ما رُوِى من أن العرب عبروا المحيط الأطلنطى قديماً واكتشفوا أمريكا قبل أن يكتشفها كريستوفر كولومبوس ، فيقول الأفغانى : " إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بنى آدم ، أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة .. ثم يقول :

"نعم ، قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم "[1] .

ثامناً : الغلو فى الحديث عن الغيبيات :

ومن مظاهر التخلف فى الفكر الدينى التركيز على أمور غيبية ، لاسند لها من صحيح الدين ، وذلك على حساب العقل الإنسانى . وقد ترتب على ذلك حدوث نوع من الشلل فى الفكر الدينى ، والميل إلى التواكل بدلاً من الاعتماد على الإر دة الإنسانية .

وهناك فريق من الصوفية يتحدثون عن أشياء فى عالم الغيب لم يرد لها ذكر لا فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، ولا تعدو أن تكون مجرد انطباعات ذاتية ، وتُعد من قبيل الرجم بالغيب . فالغيب قد استأثر الله وحده بعلمه كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦ ـ ٢٧] وفى موضع آخر : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

ومن المعروف أن العلم إما دينى أو دنيوى . فالعلم الدنيوى "متروك للاجتهاد المطلق ، وأساسه الملاحظة والتجربة والاستقراء .. وليس للوحى الإلهى دخل فى بحوثه الكيماوية أو كشوفه الفلكية أو إنتاجه الصناعى .. إلخ" ومن هنا فإنه قسمة مشتركة بين جميع البشر لا دخل فيه للجنس أو الدين أو اللون . أما العلوم الدينية فإنها تعتمد بطبيعة الحال على الوحى الإلهى وما صح من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام . وما عدا ذلك أوهام وأباطيل .

١ـ زعماء الإصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين ، ص ١٠٢ ، ط بيروت .

وقد نقل الشيخ محمد الغزالى ـ رحمه الله ـ نصاً طويلاً لأحد المنتسبين إلى التصوف يتحدث فيه عن مراتب أهل الغيب الذين يسميهم أهل الباطن أو أهل الديوان ، ويُفصِّل القول فى الحديث عن الغوث الأعظم والأوتاد والأبدال السبعة ، والنقباء الاثنى عشر والنجباء السبعين .. إلخ ، ويزعم صاحب هذا النص أن هؤلاء لهم تأثير فى عالم الشهادة ، ويتهم من يعارض ذلك أو ينكره بالجهل والهرطقة . وكل ذلك كلام لا أساس له فى صحيح الدين ولا سند له من قرآن أو سنة [1].

وهناك ـ للأسف الشديد ـ كتب يقرؤها الناس محشوة بالكثير من مثل هذه الخرافات حول موضوعات غيبية ما أنزل الله بها من سلطان . وإن شَغْل الناس بتفصيلات غيبية لم ترد فى القرآن والسنة عن الجنة والنار وعذاب القبر وأهوال يوم القيامة مرفوض دينياً .

ومن نافلة القول أن نشير إلى أنه كلما غاب العقل أوغل الناس فى مثل هذه الأمور التى تصرفهم عن الاهتمام بدنياهم وتعميرها والعمل على تقدمها وازدهارها بالعلم فى مختلف جوانبه وتعدد تخصصاته ، كما أمرنا الإسلام بذلك .

ويوجه الشيخ الغزالى اللوم فى هذا الصدد إلى هؤلاء الذين يتحدثون باسم الدين ويحلو لهم دائماً الحديث فى الغيبيات وغيرها من أمور لا تمت لحياة الناس بصلة فيقول :

١ـ مائة سؤال عن الإسلام للشيخ الغزالى ، ص ٤٨٠ / ٤٨١ ، دار ثابت .

" إن اللوم يتجه إلينا ـ نحن دعاة الإسلام ـ لأننا لا نعرف طبيعة العصر الذى نعيش فيه ، والمنطق الذى يقنع أهله ، والشبهات التى جدَّتْ مع مدنيته . وبعضنا قد يحيا متخلفاً عن عصره ألف سنة ، يخاصم فرقاً بادت ، ويناقش قضايا نُسيت ، ما يحب الناس أن يسمعوا عنها جداً ولا هزلاً .. والإسلام لا يُخدم بهذا الأسلوب " .

٥ ـ محاولات تجديد الفكر الدينى :

وبعد أن عرضنا نماذج من مظاهر تخلف الفكر الدينى نتحول إلى الحديث عن بعض محاولات الإصلاح والتجديد بهدف إزالة الخلل الذى أصاب الفكر الدينى منذ زمن طال أكثر من اللازم .

فاعتماداً على المأثور النبوى عن التجديد ، السابق الإشارة إليه ، وجدنا العديد من مفكرى المسلمين المستنيرين يبذلون جهودهم فى سبيل تجديد الفكر الدينى . وفى هذا الاتجاه وجدنا الشيخ أمين الخولى فى كتابه (المجددون فى الإسلام) يعود بنا إلى المؤلفين القدامى الذين كرسوا جهودهم فى قضية التجديد . ومن هؤلاء جلال الدين السيوطى (٩١١ هـ) فى كتابه " التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة " والمراغى الجرجاوى (١٠٣٥ هـ) فى كتابه : " بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين " .

وقد بلغت فكرة التجديد للدين كما يقول الشيخ أمين الخولى ـ إلى حد أن نُظِمت شعراً كما نُظِمت متون العلوم . وقد بدأ حديث الأقدمين عن التجديد مبكراً منذ حوالى القرن الثالث الهجرى .

وقد فهم الغزالى (المتوفى فى بداية القرن السادس الهجرى) - فهم التجديد على أنه (إحياء لعلوم الدين) وله فى ذلك كتابه الكبير المعروف بهذا الاسم . ولكنه فضلاً عن ذلك كان يؤكد دور العقل الذى يرى فيه قبساً من نور الله . ويرى أن ما يوحى ظاهره من النصوص بمخالفة العقل يجب تأويله ليتفق مع العقل . وكان يرى ضرورة المصالحة بين العقل والدين. وهذا ما اتجه إليه معظم فلاسفة الإسلام كل بطريقته الخاصة .

وتواصلاً مع الجهود القديمة شهد العصر الحديث الكثير من محاولات التجديد على يد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما ممن خصص لهم أحمد أمين كتابه (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث) . ومن بين الأسماء البارزة فى هذا الصدد الشيخ حسن العطار وتلميذه رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ شلتوت ومحمد إقبال ومالك بن نبى وغيرهم كثيرون . ولكل منهم أسلوبه فى التجديد ومنهجه فى الإصلاح . ولكنهم جميعاً يتفقون فى الهدف المتمثل فى ضرورة فهم الدين على أنه دين محرِّك للحياة بكل أبعادها ، فهو علم ومعرفة وأخلاق وحضارة ، فضلاً عن كونه عقيدة وشريعة .

وقد ألَّف الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى منتصف القرن الماضى مجلداً كبيراً بعنوان " المجددون فى الإسلام " كما ألف محمد إقبال كتابه المعروف " تجديد التفكير الدينى فى الإسلام " . وقد كانت آلية التجديد لكل هذه الجهود تتمثل فى مبدأ الاجتهاد الذى يعد اليوم الفريضة الغائبة فى عالمنا الإسلامى المعاصر .

وقد فسر الأقدمون التجديد الوارد فى الحديث النبوى بأنه "إحياء السنة وإماتة البدعة " .

وكان الشيخ محمد عبده أيضاً يدعو إلى الرجوع إلى ما كان عليه سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، مع تأكيده على التقليل من شأن كتب المتأخرين . ونرى هنا دعوة إلى إحياء التراث القديم . فالتجديد لدى محمد عبده لا يقوم على رفض التراث جملة وتفصيلاً ، ولا يقوم أيضاً على الوقوف عند التراث كما هو دون بذل أية محاولة لتأويله وتطويره .

وما ذهب إليه الشيخ محمد عبده فى هذا الصدد يجب أن يُفهم فى إطار رفضه للتقليد ودعوته إلى أن " الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة - كما يقول- والشجاعة هنا قسمان : شجاعة فى رفع القيد الذى هو التقليد الأعمى ، وشجاعة فى وضع القيد - يعنى بذلك العقل - الذى هو الميزان الصحيح الذى لا ينبغى أن يُقَرَّر رأى ولا فكر إلا بعد ما يوزن به ويظهر رجحانه " [1].

ويرجع الشيخ محمد الغزالى التجديد بالإضافة إلى الحديث السابق ذكره إلى حديث نبوى آخر يقول : **"يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين"**[2].

ويشير إلى بعض أمثلة من تأويلات الجهال القائلين بإبطال كروية الأرض وغير ذلك من أمثلة تعبر عن عقول مريضة للفئات المشار إليها فى الحديث وهى فئات الغالين المتشددين والمبطلين والجاهلين ثم يقول : " إن

١- نقلاً عن الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ، ص ١٥٣ .

٢- سنن البيهقى الكبرى ج١٠ ، ص ٢٠٩ عن إبراهيم بن عبدالرحمن العذرى .

تجديد الفكر الدينى يتطلب عقلاً أنضج وقلباً أزكى ، يتطلب بصراً بأخطاء التاريخ ومزالق الأجيال ، يتطلب علماء بالكتاب لا مجرد قراء ، وخبراء بالسنة لا مجرد رواة ، وفقهاء فى الشرع لا مجرد مقلدين ، وبصراء بالتربية والتثقيف لا عبيد تقاليد سائدة وأصحاب دراسات عفنة " [1].

وإجمالاً فإن مظاهر تخلف الفكر الدينى التى أشرنا إليها من شأنها أن تعطينا مؤشراً على ما ينبغى أن يكون عليه مسار تجديد الفكر الدينى ، فبضدها تتميز الأشياء ـ كما يقال ـ وفى هذا الصدد نعتقد أن التجديد المطلوب يمكن أن يتحقق إذا تهيأت الظروف المناسبة لذلك والتى تؤدى إلى الوفاء بمتطلبات التجديد وذلك على النحو التالى :

أولاً : فتح باب الاجتهاد وتمكين العقل من أداء دوره كاملاً فى الحياة وفى فهم الدين :

فالعقل ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عُرف بالعقل ، ولابد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة ، ونقتبس منها ما يفيدنا ، لأن المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا فى عزلة ، ولا بد أن يتسلحوا بما تسلح به غيرهم . وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم ، وأكبر عمدة فى الأخلاق هو الدين . ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدره للعلم ويحض عليه ، وللعقل ويدعو إليه ، وللأخلاق الفاضلة التى تدعو إليها المدنية الحاضرة " [2].

١ـ مائة سؤال عن الإسلام للشيخ الغزالى ، ص ٢٤٨ .

٢ـ زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ص ٣٣٧ .

والاجتهاد ينبغى أن يُوجَّه إلى فقه الواقع ، وتلافى أخطاء السابقين وتحاشيهم الخوض فى قضايا هى من صميم الواقع الحياتى . فقد كان من أبرز نقاط الضعف فى الفقه الإسلامى قضايا الفقه السياسى وشئون العمل والعمال . وينبغى أن يتجه الاجتهاد أيضاً إلى إعادة النظر فى اجتهادات السابقين فى ضوء متغيرات العصر وإنجازات العلم وضرورات الحياة المتجددة باستمرار .

والشجاعة التى أشار إليها الشيخ محمد عبده تقتضى أيضاً حسن اختيار ما فى المذاهب القديمة من محاسن ورفض ما لا يتفق مع العقل وظروف العصر من آراء متحفية عفا عليها الزمن . وفى هذا الإطار كان الشيخ شلتوت موفقاً حينما اختار رأى أبى حنيفة الذى يقضى بأن إتلاف مال الذمى كالخمر والخنزير يستوجب التعويض ، وأن المسلم إذا قتل كافراً يحكم عليه بالقتل قصاصاً . ولأصحاب المذاهب الأخرى تصورات أخرى لايمكن الأخذ بها ولا يجوز الالتفات إليها .

إن العبودية للمذهبية الضيقة قد سدت على الناس مسالك الحياة ، وأرهقت عقولهم وصعَّبت عليهم حياتهم . والدين أرحب صدراً من كثير من الغثاء الذى ينشره المتشددون على الناس ليل نهار . فالشريعة الإسلامية قائمة على التيسير ورفع الحرج . والنبى ﷺ - كما تقول السيدة عائشة - ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، وهو القائل : **" الدين يسر لا عسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه "** . والقرآن نفسه يدعو إلى التيسير على الناس فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج : ٧٨] . وفى قوله : ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ** ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

واعتماداً على هذه التعاليم ، وبعيداً عن المذهبية المتحجرة ، وجدنا الشيخ محمد مصطفى المراغى حينما كان رئيساً للمحكمة العليا الشرعية يشكل لجنة لتنظيم الأحوال الشخصية برئاسته ويوجه اللجنة إلى عدم التقيد بمذهب الإمام أبى حنيفة إذا وجدت فى غيره ما يناسب المصلحة العامة للمجتمع ، ومن بين ما قاله لأعضاء اللجنة : " ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان ، وأنا لا يعوزنى بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم . فالشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة ما يجعلنا نجد فى تفريعاتها وأحكامها فى القضايا المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا فى كل وقت ، وما يوافق رغائبنا وحاجاتنا وتقدمنا فى كل حين .. فالمسائل الفقهية ما دامت غير قطعية فهى قابلة بحكم الشرع للتجديد والتغيير " [1].

ثانياً : ضرورة المصالحة بين الدين والعلم :

فالإسلام كدين لا يعادى العلم ولا يصادم أية حقيقة علمية . وما يقره العلم لا يرفضه الدين . ولا يغيب عن الأذهان أن الآيات الخمس الأولى من الوحى القرآنى لم تحدث الناس عن العقائد أو العبادات ، وإنما حدثتهم عن مفاتيح الحضارة . فقد طلبت منهم القراءة مرتين : قراءة الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم ، وقراءة الكتاب المنظور وهو الكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما من كائنات بشرية وغير بشرية ، كما تضمنت هذه الآيات التأكيد على العلم الذى علمه الله للإنسان والإشادة به وبالقلم

١ـ مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن لعلى عبدالعظيم ، ج٢ ، ص ١٩ – ١٩٧٩ .

الذى هو وسيلة تدوين العلم وبالإنسان حامل لواء هذا العلم والمسئول عن تطبيقه فى دنيا الناس .

والنبى عليه الصلاة والسلام جعل طلب العلم ـ مطلق علم ـ فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأخبرنا أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وأشار إلى أن من سهَّل لامرىء طريقاً إلى العلم سهل الله له طريقاً إلى الجنة .

فهل يُعقل أن ديناً يحث على العلم ويدعو إلى طلبه حتى ولو فى الصين يمكن أن يتناقض مع العلم ؟ لقد رفع الله قدر العلماء وجعلهم أخشى الناس لله لأنهم الذين يدركون أسرار الكون وجمال صنعه وجلال خالقه ، وجعل الإسلام مداد العلماء مساوياً لدماء الشهداء .

ثالثاً : تمكين المرأة من أداء دورها الفاعل فى الحياة :

فالمرأة كائن بشرى مثل الرجل ، والنساء ـ كما يقول الرسول ﷺ ـ : **"شقائق الرجال"** [1] . وفى الآية الكريمة : ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وقد انفرد الإسلام من بين كل الأديان بإعطاء المرأة حقوقها كاملة ، ولكن الفهم الخاطيء والتأويلات الباطلة التى انتشرت على مدى القرون قد ظلمت المرأة وهضمت حقها وسلبت إرادتها وجعلت منها كماً مهملاً ينبغى أن يختبيء عن الأعين تحت نقاب لا يراها أحد .

١ـ أخرجه أحمد فى مسنده (حديث ٢٤٩٩٩) ، وكذا أبو داود فى سننه (٢٠٤) والترمذى فى سننه (١٠٥) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ولن يستطيع المجتمع أن يتغلب على الكثير من مشكلاته إلا إذا كانت المرأة شريكاً مساوياً للرجل يُحترم رأيها وتُحترم حريتها وتُصان آدميتها وعقلها وفكرها .

رابعاً : إعادة النظر فى المناهج التعليمية :

من الأمور التى تساعد على تصحيح مسار الفكر الدينى إعادة النظر فى المناهج التعليمية ، سواء فى المعاهد الدينية أو فى التعليم العام من أجل تعليم النشء التفكير النقدى حتى يستطيع أن يميز بين النافع والضار من الآراء التى يسمعها صباح مساء وأن يوازن بينها ويُعمل عقله وفكره فى تقييمها ، فلا يختار منها إلا ما يعتمده العقل ويقرره المنطق السليم مع التأكيد على أن الإسلام لا يمكن أن يصادم العقل والمعقول .

" فالعقل ـ كما يقول الإمام الغزالى ـ كالأساس والشرع كالبناء ، ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس . فالعقل شرع من داخل ، والشرع عقل من خارج وهما متعاضدان بل متحدان"[1]، وتسليح أطفالنا وشبابنا بسلاح التفكير النقدى من شأنه أن يحميهم من كل شكل من أشكال التطرف والتعصب والإرهاب . وفى ذلك حماية للمجتمع من شر هؤلاء المتطرفين المتشددين الذين يقومون بعمليات مسح مخ لضحاياهم حتى تكون عقولهم مبرمجة حسبما يريد هؤلاء المتطرفون .

١ـ معارج القدس للإمام الغزالى ، ص ٥٩ ، القاهرة ١٩٢٧ .

خامساً : إعادة النظر فى فهم السابقين للحديث النبوى عن التجديد:

فالاقتصار اليوم فى عصر ثورة المعلومات والاتصالات على فهم التجديد بأنه إحياء السنة وإماتة البدعة ليس كافياً ، فتصحيح الحاضر بالنظر إلى الماضى فقط ـ كمعيار ـ دون مراعاة للمستقبل ومستجدات العصر وظروف الحاضر وفهم الواقع يعد تصحيحاً قاصراً ، فتطبيق المعايير القيمية دون فهم لظروف الزمان والمكان والأحوال لن يحقق المقصود به بل ربما يؤدى إلى العكس تماماً . والأمر يحتاج إلى تحديد المفاهيم أولاً لمعرفة معنى السنة ومعنى البدعة والفرق بين ما هو عادة وما هو عبادة وبين ما هو مجرد تقاليد وأعراف ، وما هو قيم دينية وأخلاقية ، بالإضافة إلى فهم كل الظروف والملابسات حتى يمكن الوصول إلى الصيغة المعقولة للتجديد .

خاتمة :

وقبل أن نختم هذه المحاضرة أود أن أشير فى النهاية إلى أنه على الرغم من الجهود التجديدية المتواصلة على مدى العصور ، حيث لا يخلو عصر من مجدد أو مجددين بمقتضى حديث التجديد ، فإن هذه الجهود لم تستطع للأسف الشديد أن تشكل تياراً عاماً غالباً . فلا تزال الغالبية العظمى من فقهائنا ـ ليس فى مصر فقط وإنما على مستوى العالم الإسلامى ـ تقليديين مقلدين لا يريدون أن يخرجوا من نطاق المذهبية الضيقة التى تعلموها ودرجوا عليها ، وينظرون إليها على أنها الدين ، وأنه لا يجوز المساس بها ، كما يشير إلى ذلك الشيخ المراغى أيضاً حين يقول : " إن فريقاً من متأخرى

العلماء رأوا أن كل ما جاء فى كتب الفقه من المتون والحواشى والآراء المصيبة والمخطئة ، كل ذلك من الدين ومن أصوله التى يجب أن نتمسك بها ولا نحيد عنها ، وهم مخطئون فى هذا الفهم .. ومن غير المعقول أن نضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأ فى القرن الثانى عشر من الهجرة ثم نجيء بعد ذلك فنطبق هذا القانون أو المبدأ سنة ١٣٥٤ هـ " [1].

وقد قال الشيخ المراغى هذا الكلام منذ ثلاثة أرباع القرن ، ولا نزال نعيش حتى يومنا هذا ذات الظروف التى جعلته يقول ما قال .

وهذه المواقف المتحجرة تسير فى اتجاه مضاد لسنة الحياة وطبيعة الأشياء. فرَكْب الحياة يواصل السير بلا انقطاع ، وعجلة الزمن لا تتوقف عن الدوران ، ولكن عقول كثير من القائمين على أمر الدين لم تعد قادرة على مسايرة الزمن ولا مؤهلة لفهم تطورات العصر . وأصبحت أصوات المنادين بالتجديد بمثابة صرخة فى وادٍ أو نفخة فى رماد .

وتقنع الغالبية العظمى من علماء الدين فى عالمنا العربى والإسلامى بما لديهم من علم قديم ورثوه عن الأسلاف ، وينامون قريرى الأعين يغطُّون فى سبات عميق لا شأن لهم بما يدور فى عالم اليوم ، يسخرون من دعاة التجديد ويعتبرونهم مارقين خارجين عن جادة الصواب . أما غيرهم ممن يحتكرون الإسلام لأنفسهم ويُقصُون غيرهم من ساحته فكل همهم هو الحصول على مكاسب سياسية تصل بهم إلى كراسى الحكم . وهكذا يتجنى هؤلاء وأولئك على الإسلام أكثر من جناية خصومه عليه .

١ـ مشيخة الأزهر ، مرجع سابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .

ولا شك فى أن قعود علماء الأمة ومجتهديها عن تحمل مسئولياتهم قد فتح الباب على مصراعيه للغلاة والمتشددين والمتعصبين والجاهلين ، الأمر الذى عم بلاؤه واشتدت وطأته ، وتم اختزال الدين فى بعض الشكليات التى خرجت به عن جوهره الحقيقى فى كونه ديناً للحياة .

إن الأمر جِدٌ لا هزل فيه ، ولم يعد يحتمل التأخير . وفكرنا بصفة عامة، وفكرنا الإسلامى بصفة خاصة ، فى أشد الحاجة إلى التجديد لنضخ فى شرايينه دماء ثقافة جديدة تعمل على تمكين العقل من أداء دوره كاملاً فى الحياة ، وتحريك الطاقات الكامنة لدى الشباب ، وتشجيع الراغبين فى العمل على المشاركة الجادة من أجل تغيير الواقع المتخلف وإنقاذ أمتنا مما يتهددها من تطرف بغيض فى الفكر وفى السلوك ، وتواكل مرذول فى ميادين العمل والإنتاج .

وإذا كان واقع الفكر الدينى مؤلماً ومريراً فإن ذلك لا يجوز أن يصيبنا بالإحباط أو يجعلنا نفقد الأمل فى تغيير هذا الواقع المتخلف . وإذا أردنا أن تكون الجهود التجديدية مثمرة فمن الضرورى أن تتلاقى هذه الجهود المبعثرة وتجتمع على كلمة سواء . فالجهود الحالية ـ مع احترامنا لأصحابها ـ مصابة بداء التشرذم فى جزر منعزلة دون أى تنسيق ، الأمر الذى يفقدها الكثير من الفاعلية والتأثير .

فهل نطمع فى توحيد هذه الجهود حتى تؤتى أُكُلها فى وقت قريب ؟

إن هذا أمل نرجو أن يتحول إلى عمل ، وإن غداً لناظره قريب .

٣ التراجع الحضارى بين التفسير التآمرى وإرادة الأمة (*)

التراجع الحضارى للأمم العريقة فى الحضارة لا يمكن أن يأتى فجأة ودون مقدمات ، ومن التبسيط غير العلمي للأمور إرجاعه إلى سبب واحد داخلياً كان هذا السبب أو خارجياً . فالحضارة ليست كبيت العنكبوت تنهار عند أول رياح تهب عليها . وكما تحتاج الحضارة إلى أجيال لبنائها وترسيخ أركانها فإن انهيارها أيضاً يستغرق وقتاً قد يطول أو يقصر تبعاً لشدة الأعاصير التى تتعرض لها الحضارات . ومنطق العقل يبين لنا أن هناك قوانين تحكم بناء الحضارات وانهيارها ، وأن الأمور غير متروكة للصُّدف أو العشوائيات أو الأمور الغيبية التى لا حيلة للإنسان إزاءها .

ولكن هناك كثيرين فى عالمنا الإسلامى يحلو لهم تبسيط الأمور واختزال أسباب التراجع الحضارى الذى تعانى منه الأمة الإسلامية منذ قرون فى سبب واحد يتمثل فى وجود أيادٍ خارجية تتآمر علينا وتعمل على حصارنا وبقائنا متخلفين . ويعتقد هؤلاء أنهم بهذا التفسير قد كشفوا المستور وفضحوا الأعداء الذين يتربصون بنا الدوائر . ولا بأس من أن يقترن هذا التفسير بشعارات حماسية دفاعاً عن الإسلام الذى سينتصر على هؤلاء الأعداء الذين ستدور عليهم الدائرة حتماً عما قريب . وبهذا يكون

* نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ١٠/١٠/٢٠٠٩م .

أصحاب هذا التفسير التآمرى قد أدوا واجبهم تجاه الدين وتجاه الأمة ، وكفى الله المؤمنين القتال . فالله لن يتخلى عن دينه وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وهذا التوجه لدى قطاع عريض من المسلمين ، والذى يتجاهل دور المسلمين أنفسهم فى الإسهام فى تراجع حضارتهم ، يؤدى إلى أمرين . **أولهما** : تخدير جماهير الأمة وإيهامهم بأن أسباب التراجع الحضارى أسباب خارجية يتحمل جريرتها أعداء الأمة . **وثانيهما** : التحلل من مسئولية عمل شيء للخروج بالمسلمين من دائرة التخلف . وبذلك يسهم هؤلاء ، دون وعى ، فى استمرار تخلف الأمة . وهذا الموقف المتخاذل لا يليق بالمسلمين ولا يتفق مع تعاليم الإسلام ولا مع القوانين التى تحكم تطور المجتمعات البشرية .

وإذا سلَّمنا بأن هناك مؤامرات تحاك ضد المسلمين فى الخفاء أو فى العلن ، وأن هناك نوايا سيئة ضد الإسلام فى الماضى والحاضر ، فإن السؤال المهم فى هذا الصدد هو : أين إذن الإرادة الإسلامية ؟ وأين مسئولية المسلمين أنفسهم إزاء مجتمعاتهم وإزاء دينهم ؟

هل نجح الأعداء تماماً فى سلب إرادة الأمة وشَلِّ حركتها وتخدير أبنائها؟ وهل يكفى التباكى على أطلال الحضارة الإسلامية أو التغنى بما كان لها من أمجاد والاكتفاء باجترار الذكريات الجميلة لحضارة كانت عريقة وشامخة فيما مضى من الأزمان ؟ أين ذلك كله من القانون القرآني القائل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ؟ ألا

يعد الموقف السلبى لهؤلاء المتباكين إسهاماً واضحاً فى استمرار تخلف المسلمين؟

إن الإسلام قد رسم الطريق للخروج من التخلف والانطلاق نحو التقدم وذلك عن طريق العلم والعمل . والله لن يساعد المسلمين إلا إذا ساعدوا أنفسهم ، ولن تتغير أحوالهم بمجرد الدعاء على الأعداء أن يأخذهم الله أخْذَ عزيز مقتدر ، وأن ينصر المسلمين نصراً مؤزراً .

إن التقدم لا يُمنح لأحد مجاناً ولا يُعطى للكسالى والمتخاذلين ، ولكنه يأتى نتيجة لبذل جهود مضنية فى سبيل الحصول على العلم الذى من شأنه أن يقود قاطرة التقدم ، ولا يليق بالأمة الإسلامية أن تكتفى بدفاع الحناجر عن الإسلام ، وتنسى أن الوحى القرآنى فى أول آياته التى نزلت على محمد ﷺ حثت على القراءة ، وأشادت بالعلم ، وبالقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم، وبالإنسان حامل لواء هذا العلم .

كما نبه الوحى القرآنى إلى أن باب البحث العلمى مفتوح بلا حدود لكل من يسير فى طريقه بصرف النظر عن عقيدته أو جنسه أو لونه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

وختام هذه الآية فى منتهى الأهمية لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . فالذين يتفكرون ويبحثون ويدرسون هم الذين سيصلون حتماً إلى التعرف على الآيات الإنسانية والكونية فى هذا الوجود . وما نشهده فى عالم اليوم دليل واضح على ذلك . فقد توقف

العطاء الحضارى للمسلمين منذ عصور التراجع الحضارى ، وتقدم غيرهم لأنهم سلكوا طريق العلم فنهضوا . واكتفى المسلمون بأن يكونوا مجرد مستهلكين لما ينتجه غيرهم ، وبذلك أصبحوا عالة على الآخرين وزبائن دائمين فى " سوبر ماركت" الآخرين ، قانعين بقشرة حضارية ظاهرية لا تنبيء عن تحضر حقيقى .

ورحم الله جمال الدين الأفغانى الذى كان يقول فى مثل هذا السياق : "إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بنى آدم ، أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة " . ويحث الأفغانى المسلمين على العمل مثلما فعل أسلافهم قائلاً : " لا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم " [1].

لقد آن الأوان لأن نغير مواقفنا ونفكر تفكيراً سليماً للخروج من الأزمة الحضارية الخانقة التى تحيط بالأمة الإسلامية . فالأمة ليست فقيرة فى مواردها . فالفقر الحقيقى فى غياب الدور الإنسانى ، أى فى غياب العقل . وتمكين العقل من أداء دوره كاملاً يجعل الأمة قادرة على التنافس مع الأمم الأخرى فى ميادين العلم والحضارة ، الأمر الذى يجعلها جديرة باحتلال المكان اللائق بها فى عالمنا المعاصر .

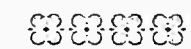

١ ـ زعماء الإسلام فى العصر الحديث ، ص ١٠٢ .

٤ الإسلام و هرم الأولويات المقلوب

كثيراً ما نتحدث عن الإساءة إلى الإسلام من جانب غير المسلمين ، وننسى فى غمرة ردود الأفعال الغاضبة إزاء هذه الإساءات أن الإسلام يتعرض لإساءات أشد وأقسى من بعض من ينتسبون إليه . ولا يقلل من خطر هذه الإساءات ما قد يصاحبها من حسن النوايا . ومنذ أكثر من ثمانية قرون عبَّر الفيلسوف العظيم ابن رشد عما يشعر به من الحزن والألم بسبب ما تخلل الشريعة الإسلامية من الأهواء الفاسدة والاعتقادات المحرفة التى أدخلها عليها " الأصدقاء الجهال " .

وعلى الرغم من مرور هذه القرون الكثيرة على شكوى ابن رشد فإن الأمر فى عصرنا لا يختلف كثيراً . فقد أدخلت على الدين أفهام فاسدة أساءت إليه أكثر من إساءة خصومه إليه . ولكن الإساءات المعاصرة قد ازدادت حدتها وتنوعت مصادرها وأتيح لها الانتشار السريع على نطاق واسع عبر الفضائيات بفضل الثورة التكنولوجية الحديثة .

ويمكن إرجاع الإساءات المعاصرة إلى الإسلام من جانب بعض من ينتسبون إليه إلى جهل فاضح بتعاليم الدين من ناحية ، وإلى محاولات توظيف الدين لخدمة أغراض سياسية أو أطماع دنيوية من ناحية أخرى ، الأمر الذى من شأنه أن يؤدى إلى الانحراف بالدين عن الطريق المستقيم الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

إن الإسلام فى جوهره دين العلم والعقل والحضارة ، دين الجمال والذوق الرفيع ، دين القيم العالية والفضائل السامية ، دين البناء والتعمير والأمن والسلام ، دين العدل والتراحم والتعاون على كل ما من شأنه تقديم الخير لكل الناس فى كل زمان ومكان .

ويخطىء " الأصدقاء الجهال " المعاصرون خطأ فاحشاً حين يقلبون هرم الأولويات الإسلامية رأساً على عقب ويقدمون الإسلام للآخرين من خلال بعض المظاهر الشكلية على أنه دين اللحية والجلباب والمسبحة ، دين الدروشة الفارغة والجهل والخرافات والأوهام . ويختزلون هذا الدين العظيم فى قطعة من قماش تغطى وجه المرأة وتلغى شخصيتها تماماً . وقد روت لى أستاذة مسلمة تعمل فى جامعة جنيف أن إحدى الطالبات لديها قد أبدت رغبتها فى اعتناق الإسلام فأرسلتها إلى المركز الإسلامى هناك . وقد فوجئت الطالبة بأن الشيخ يطلب منها أن تتحجب أولاً قبل أن يقبل إعلانها الدخول فى الإسلام . وهؤلاء وأمثالهم يُنفِّرون الناس من الإسلام ويصدون عن سبيل الله .

لقد جاء الإسلام رحمة للعالمين ، ونص القرآن على ذلك فى وضوح تام فى قوله تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] والشدة والغلظة والتجهم واصطناع الجدية فى عرض الإسلام لا مكان لها فى تعاليم هذا الدين. ومن هنا امتدح القرآن النبى عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقد استخدم القرآن الكريم أسلوب التدرج فى عرض الإسلام على الآخرين . وتحريم الخمر أوضح دليل على ذلك . فقد مر هذا التحريم بعدة مراحل . ففى المرحلة الأولى اهتم القرآن ببيان أن الخمر فيها منافع وفيها مضار ، ولكن ضررها أكبر من نفعها ، ثم كانت المرحلة الثانية فى الطلب من المسلمين ألا يقربوا الصلاة وهم سكارى ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] وبعد هذه التوعية التربوية بدأ المسلمون من تلقاء أنفسهم يبتعدون عن شرب الخمر ، وهنا جاء التحريم النهائى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة : ٩٠] .

وهناك فريق آخر يقدم الإسلام للآخرين على أنه دين يدعو إلى إعلان الحرب على كل الناس حتى ينطقوا بالشهادة ويصبحوا مسلمين، مؤكدين بذلك مقولة خصوم الإسلام الذين يصفون الإسلام بأنه دين يدعو إلى العنف والإرهاب وسفك الدماء . ويغيب عن فهم هؤلاء "الأصدقاء الجهال" أن القتال فى الإسلام لم يشرع إلا لرد العدوان . فالحرب فى الإسلام حرب دفاعية . ويؤكد ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

وإذا كان الأصدقاء الجهال يدفعهم الجهل إلى ارتكاب مثل هذه الأخطاء فى حق الإسلام ، فإن هناك غيرهم من طلاب الشهرة يخرجون على الناس بين حين وآخر بآراء تطعن الإسلام فى الصميم ادعاءً منهم بأنهم مجددون .

والأمر الذى لا مراء فيه أن الإسلام فى حاجة ماسة إلى مجددين من أمثال ابن رشد قديماً ومحمد عبده حديثاً ليزيلوا عن الإسلام ما تراكم عليه من غبار الجهل على مر السنين ، ويكشفوا للناس عن الجوهر الحقيقى للدين ، ولكن الإسلام ليس فى حاجة إلى أدعياء التجديد الذين ينقلون حرفياً ما سبق أن قاله بعض المستشرقين من مقولات متحفية عفا عليها الدهر ، يتنزه عنها معظم المستشرقين المعاصرين الذين يحترمون أنفسهم ويحترمون العلم الذى ينتسبون إليه .

وقد أصبح التجديد المزعوم " موضة " العصر . فكل من يبتغى شهرة عليه أن يهاجم أصلاً من أصول الدين . وعندئذ سيتصدى له من يهاجمه ويتهمه بالكفر ويرفع ضده دعاوى حسبة ، وفى المقابل سيتصدى للدفاع عنه فريق آخر باسم حرية الفكر . وهكذا يصل المجدد المزعوم إلى ما يريد من الشهرة الكاذبة .

إن الإسلام إذ يعلى من شأن العقل الإنسانى فإنه يشجع حرية الفكر ويرفض التقليد الأعمى ولا يضيق ذرعاً بالاجتهادات التى قد تخطيء وقد تصيب . فالتفكير فى كلتا الحالتين مطلوب ، بل هو فريضة إسلامية كما عبَّر عن ذلك بحق الأستاذ العقاد رحمه الله .

والأمر الذى لا شك فيه أن الثروة الفكرية والدينية فى الإسلام فى حاجة إلى مراجعة مستمرة وتنقية لما طرأ عليها من أهواء فاسدة واعتقادات محرفة ـ كما عبَّر عن ذلك الفيلسوف ابن رشد ـ ، كما أنها فى حاجة إلى تجديد يُثريها وينميها ويجدد حيويتها . وهناك فرق بين هذا التجديد المطلوب

وبين التبديد لهذه الثروة الذى يعنى إهدارها والتعامل معها بسفه بغية القضاء عليها . فهل هى مصادفة أن يكون الفرق بين التجديد والتبديد هو الاختلاف فى حرف واحد ؟ وهل فى ذلك إشارة ضمنية إلى أن التفرقة بينهما فى حاجة إلى عقل رشيد يدرك الفروق الدقيقة بين الجانبين حتى لا يقع فى محظور الخلط بينهما ؟

إننا فى حقيقة الأمر فى حاجة إلى هذا العقل الرشيد ليعيد هرم الأولويات الإسلامية إلى وضعه الطبيعى من ناحية ويحمى ثروتنا الدينية الأصيلة من الضياع والعبث من ناحية أخرى .

٥ الموروث والوافد فى الثقافة الإسلامية (*)

قضية الوافد والموروث فى الثقافة العربية الإسلامية قضية قديمة قدم الثقافة الإسلامية ، فقد شغلت هذه القضية اهتمام علماء الأمة ومفكريها وفلاسفتها فى كل العصور . ومن الواضح أن الاهتمام بها سيمتد إلى المستقبل أيضاً ، فهى قضية لم تحسم فى الماضى ولن تحسم فى الحاضر على نحو يغلق باب النقاش حولها بصفة نهائية . وما اجتماعنا اليوم لمناقشتها إلا دليل واضح على ذلك . وسيظل هناك أنصار متعصبون للموروث وأنصار متعصبون أيضاً للوافد الثقافى . وقد شهد القرن الماضى مناقشات كثيرة حول هذه القضية تحت عناوين أخرى مثل التراث والمعاصرة وغيرها من عناوين خرجت فى بعض الأحيان عن النقاش الموضوعى وذهبت إلى اتهامات متبادلة بين الفريقين .

وعلى الرغم من ذلك فإننا نعتقد أن الاختلاف فى وجهات النظر حول هذه القضية لا يجوز أن ننظر إليه من جانبه السلبى فقط ، بل ينبغى النظر إليه على أنه مؤشر على حيوية الثقافة ، وأنه لا مفر من مواجهة شتى الأفكار والرؤى حول هذه القضية المحورية ، فالتفاعل بين مختلف التصورات أمر مطلوب وضرورى من أجل البحث عن مسيرة آمنة لثقافة الأمة تحافظ على هويتها من ناحية وتؤكد مواكبتها لتطورات العصر من ناحية أخرى .

---

* كلمة أعددناها لافتتاح الندوة الحادية والعشرين للجمعية الفلسفية المصرية ، كلية الآداب، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٩/١٢/٥ .

ومنذ أكثر من ثمانية قرون أدلى الفيلسوف العظيم ابن رشد بدلوه فى هذه القضية مشيراً إلى أن "النظر فى كتب القدماء واجب بالشرع"[1] ويعنى بالقدماء فلاسفة اليونان بصفة خاصة والذين كانوا حينذاك يمثلون الثقافة الوافدة . وينطبق ذلك بطبيعة الحال على كل ثقافة أخرى وافدة . وهذا الموقف الرشدى يمثل انفتاحاً على الوافد من الثقافات أياً كان مصدرها . فهى فى النهاية جزء من التراث الإنسانى الذى تشترك فيه كل الأمم والشعوب . وحقيقة الأمر أنه لا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث . فاللاحق يبنى على ما تركه السابق . ولا توجد أمة تبدأ من نقطة الصفر وتتجاهل علوم الآخرين وتجاربهم .

ومن هذا المنطلق يحدد ابن رشد موقفه من الثقافة الوافدة تحديداً أكثر دقة بقوله : " ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم . فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم " .[2]

ويستبعد ابن رشد هنا أى اعتبار لتوقف الاستفادة من الثقافة الوافدة على مشاركة هذا الآخر لنا فى الملة أو عدم المشاركة . فهذا أمر لا يجوز أن يؤخذ فى الاعتبار . والمعيار الوحيد فى الأخذ من الوافد الثقافى هو مدى موافقته للحق أو عدم موافقته – كما يقول :

١ـ فصل المقال لابن رشد ص ١٧ (ضمن كتاب فلسفة ابن رشد) – دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٢م .

٢ـ المرجع السابق .

وقد تراوحت الآراء على مدى العصور التاريخية للحضارة الإسلامية وحتى اليوم أيضاً بين الرفض التام للفكر الوافد أو الترحيب التام بهذا الفكر أو محاولة التوفيق بينهما . ويمكن القول بأن الاتجاه الذى سلكته الفلسفة الإسلامية كان – بصفة عامة – اتجاهاً توفيقياً بين الوافد والموروث.

وإذا كان إغلاق الأبواب والنوافذ أمام الفكر الوافد أمراً مقدوراً عليه فى السابق فإن ذلك مستحيل تماماً فى عصرنا الحاضر ، عصر ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية . ومن هنا ليس لدينا فى العصر الحاضر خيار آخر غير التعرف على الوافد الثقافى ودراسته وإعمال العقل فى فهمه ونقده والاستفادة من كل ما يحمله من إيجابيات تساعدنا فى نهضة أمتنا وتقدمها .

وحقيقة الأمر أن المسلمين فى الأعم الأغلب قد تعاملوا مع الوافد الثقافى ، واستفادوا كثيراً من إنجازاته ، وكان لذلك أثر إيجابى على تطور الحضارة الإسلامية . وليس هناك من شك فى أنه كلما كانت الثقافة فى داخل الأمة قوية ومتطورة كان انفتاحها على الوافد الثقافى أمراً طبيعياً لا غضاضة فيه ولا ضرر منه . أما إذا كانت الثقافة ضعيفة ومتخلفة فإنها تكون منغلقة على نفسها خائفة ومتوجسة من كل جديد وافد . ولاتزال هذه التيارات المنفتحة والمنغلقة قائمة بيننا ، بل وفى كل الثقافات بنسب متفاوتة .

وتأثير الفلسفة اليونانية وغيرها من العلوم الوافدة على الثقافة العربية الإسلامية أمر لا يمكن إنكاره . ولم تسلم العلوم الدينية من التأثر

بالوافد الثقافى . ويتضح ذلك فى مناقشات علماء الكلام ، بل إن تفسير القرآن الكريم لم يخل من أثر ثقافى أجنبى تمثل فيما اشتملت عليه كتب التفسير وغيرها من إسرائيليات يعرفها المتخصصون . وقد دعا ذلك جامعة الأزهر إلى إضافة علم جديد إلى المقررات الدراسية فى الكليات الدينية أطلق عليه اسم "الدخيل فى التفسير" .

وكثيراً ما نسمع عن دعوات لتنقية كتب التراث التى تأثرت بشكل أو بآخر بالوافد الثقافى . وعند تطرقنا اليوم لقضية الوافد الثقافى وتأثيراته فى الثقافة العربية فإننا فى عصرنا الحاضر – عصر العولمة – لا يجوز لنا أن نرفض هذا الوافد لمجرد الرفض أو لمجرد أنه أجنبى فهذا أمر لم يعد معقولاً ولا مقبولاً .

إن عالمنا المعاصر أصبح عالماً متداخلاً لم تعد الشعوب فيه تعيش فقط بجوار بعضها ، بل يمكن القول إنها أصبحت تعيش مع بعضها البعض . ولا ضير علينا إذا اعترفنا بأننا فى عصرنا الحاضر فى حاجة إلى الوافد الثقافى . فعصرنا لا مكان فيه للانعزال حتى لو أردنا . ولا مكان فيه للانغلاق حتى لو حاولنا . فالتيار جارف ولابد لنا أن نتعلم كيف نسبح فى هذا الخضم الجارف حتى نصل إلى شاطئ الأمان دون أن يجرفنا الطوفان ، ودون أن نظل أسرى لعقدة الذوبان فى الآخر أو فقدان الهوية . فهذا أمر يتوقف علينا نحن ولا يتوقف على هذا الوافد الثقافى .

وإذا كان هذا هو موقفنا من الوافد الثقافى فإن الموروث من ثقافتنا العربية فى حاجة ماسة أيضاً إلى عقلية واعية للاستفادة من هذا الموروث على نحو يفيدنا فى مسيرتنا الحضارية .

ولا يجوز لنا أن نسير وراء دعوات القطيعة مع الموروث . تماماً مثلما نرفض القطيعة مع الوافد الثقافى . فالأمر الذى لاشك فيه أن الموروث الثقافى يشكل أحد أهم المقومات الحضارية للأمم والشعوب . ولكننا من ناحية أخرى لسنا عبيداً لهذا التراث الموروث ولا متعبدين له . فالتواصل مع التراث لا يعنى ولا يجوز أن يعنى مجرد المحاكاة للسابقين فى كل أفعالهم وأقوالهم . فهذا أمر لا يجوز فى العقل أو الدين نظراً لاختلاف الزمان والمكان ومتغيرات الحياة وتطورات العصر .

إنما المقصود – كما يرى الدكتور زكى نجيب محمود أيضاً – هو محاكاة التراث فى الاتجاه لا فى خطوات السير ، وفى المواقف لا فى مادة المشكلات وأساليب حلها ، وفى القيم الإيجابية التى يقاس عليها ما يصح وما لايصح.[1]

وبالتزاوج بين الموروث الثقافى والوافد الثقافى نستطيع أن نتغلب على الكثير من العقبات التى تعطل مسيرتنا الحضارية . وبذلك يمكننا أن نتقدم نحو المستقبل بخطى سريعة تحدونا الآمال الكبيرة فى تحقيق صحوة حضارية تزيل عن أمتنا عار التخلف . وهذا أمر يحتاج إلى عزيمة الرجال من علماء الأمة ومفكريها ، وعليهم تقع مسئولية إخراج الأمة من أزمتها الحضارية الراهنة . فالحلول لن تسقط من السماء ، وزمن المعجزات قد انتهى منذ أزمان بعيدة . والله ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

١ـ راجع كتابنا : الفكر الدينى وقضايا العصر ص ١٥٦ وما بعدها ، دار الرشاد ، ٢٠٠٨م .